الفصل الثانى

«نحن» و«الآخر»

obeikandl.com

obeikandl.com

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤ ـ ٢٦].

فى إحدى ترجمات معانى القرآن الكريم، وردت ترجمة معانى هذه الآيات على النحو التالى:

«قل: من يرزقكم من السماوات والأرض؟ قل: الله الواحد الأحد، ونحن وأنتم إما على طريق الهداية وإما فى ضلال واضح، قل: إذا ما نحن ارتكبنا جرمًا، فلن تسألوا عنه، وإذا أنتم ارتكبتم عملاً قبيحًا فلن نُسأل نحن عنه»[1].

فى هذه الترجمة لمعانى الآيات الكريمات نجد المترجم المحترم قد أضاف من عنده صفة «القبح» لعمل الآخر، وترجم معنى، ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إلى «عمل قبيح» بغرض أن يحدث تعادلاً فى هذا الحوار، إذ لماذا لم تنسب الآية فعل الجرم إلى الطرف الآخر، والعمل إلى الرسول الكريم ﷺ؟ إننا بإضافة كلمة «القبح» إلى عمل الآخر فى ترجمتنا لمعانى الآيات السابقة نكون وكأننا قد نزلنا بمعانى هذه الآيات ـ وبحسن نية ـ من السماء إلى الأرض. فهذه الآيات تعد من أهم الآيات القرآنية التى تطرح أسلوبًا للحوار والتعامل والتعايش مع «الآخر». هذه الآيات الكريمات تحوى فى الواقع ثلاث مراحل مهمة فى أسلوب الحوار مع الآخر:

أ ـ فى المرحلة الأولى: نجد الرسول ﷺ يستخدم تعبير ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أى «نحن» أو «أنتم»، ويوضح أن أحد الطرفين ـ إما نحن وإما أنتم ـ إما على هدى أو فى ضلال مبين، ولم يقل صلوات الله وسلامه عليه: أنا رسول الإسلام، وأنا الذى على الهداية، وأنتم المشركون، أو الكفار على الضلال المبين.

ب ـ وفى المرحلة الثانية: يبدو أن الرسول ﷺ أراد أن يوجد جوّا من الراحة النفسية والعاطفية فى هذا الحوار، لذلك نجده يقول صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ حيث نسبت الآيات الكريمات «الجرم» للرسول ﷺ، و«العمل» مجردًا للآخر، وحاشا للرسول أن يكون صلوات الله وسلامه عليه من أهل الجرم أو الذنوب والمعاصى، لكن هدفه من هذا هو خلق الجو العاطفى المناسب فى الحوار.

جـ ـ وفى المرحلة الثالثة، نجد الأمر الإلهى يوجه إلى الرسول ﷺ ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾.

فالرسول الكريم ﷺ لا يريد فى الواقع أن يجبر الآخر على قبول كلامه ومعتقده. وكما يقول حافظ الشيرازى: «تعال لنحتكم فى هذه الأحكام إلى حكم عادل».

وتأسيسًا على الرغبة فى تأليف القلوب، وهذا التأليف لا يتأتى إلا من خلال حوار يسوده جو من الود والعاطفة، فى النهاية سوف يتضح أن الله تعالى سوف يحكم بيننا يوم القيامة. هذا الكلام وهذا الأسلوب يرافقه بالطبع قاعدة من الثقة بالنفس تؤثر بشكل طبيعى فى ذهن المخاطب وقلبه.

والطبرى فى تفسيره يركز بالتحديد على كلمة «جرم» وعلى كلمة «عمل»[٢].

أما الزمخشرى فيرى هذا الأسلوب فى الحوار قد بنى أساسًا على العدل وتأسس على الإنصاف[٣].

بينما نجد الفخر الرازى يهتم بأسلوب الحوار والمناظرة فى هذه الآيات الكريمات اهتمامًا خاصًا، ويقول: «هذا توجيه وإرشاد من قبل المولى تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم، كيف يتحدث فى مناظرة وحوار عادى، لأنه إذا ما بادر طرف فى حوار بقوله: إن رأيى هو الصحيح وأنا على صواب، ورأيك مغلوط وأنت على خطأ، فإن مثل هذا الحوار لن يتأتى منه إلا بروز العصبية والتعصب ولن يتوالد عنه إلا الغضب والعنف. وفى مثل هذه الحالة لا تظهر أبدًا قوة الفكرة وسلامة الحجة وصحة الرأى، ولا يتحقق الغرض من الحوار؛ أما إذا ما بادر بقوله: كلانا، أنا وأنت، بصدد البحث عن الحقيقة، ورأى واحد منا فقط هو الذى من الممكن أن يكون صحيحًا، فإن السامع أو الطرف الآخر فى الحوار سوف يتحاور فى هدوء وعقلانية ولن يصاب بالعصبية أو الغضب».

يقول الإمام الرازى فى المسألة الرابعة التى طرحها فى تفسير تلك الآيات الكريمات:

«نسب الرسول ﷺ «الجرم» إلى نفسه، بينما استخدم كلمة «العمل» فيما يتعلق بالآخر وذلك حتى لا يحول الغضب والعنف والعصبية دون إدراك الموضوع ورؤية الحقائق»(٤).

ونجد العلامة الطباطبائى فى تفسيره «الميزان» يصف هذا الأسلوب المطروح للحوار فى الآيات بأنه «سلوك طريق الإنصاف والعدل». ويقول:

«فى هذه الآيات يصف عمله بالجرم، بينما فيما يتعلق بالمشركين يستخدم كلمة «عمل» فقط ـ مجردة من أى وصف ـ وهذا الأسلوب هو دليل الجمال والبلاغة والحسن فى أدب الحوار»(٥).

ويمكننا أن ننظر إلى هذه الآيات وكذلك إلى وصفها بأنها «سلوك طريق الإنصاف» من منظور آخر، كيف تواجه «الآخر»؟ من المؤكد أنه حينما نعجز عن تعريف أنفسنا، فلن يكون لدينا تعريف واضح أو صورة جلية عن الآخر. ولتحليل نموذج جدير بالذكر لرؤية الآخرين ونظرتهم تجاهنا وتجاه تصرفنا أو سلوكنا، يمكننا بالإضافة إلى نظرة «برنارد لويس» و«فالاتشى» وغيرهما أن نرجع إلى موسوعة الفلسفة التى أصدرتها مؤسسة النشر الشهيرة «روتليدج ـ Routledge». ففى بداية مجلدها الخامس نجد بابًا تحت عنوان «الأصولية الإسلامية»، حاول محرره أن يحلل الأصولية الإسلامية من خلال رؤية ثلاثة مفكرين إسلاميين عاشوا فى القرن العشرين وهم: سيد قطب، والإمام الخمينى، وأبو الأعلى المودودى، وهى شخصيات استطاعت أن تطرح نظرية فلسفية للأصولية، نظرية تأسست عليها نظرية سياسية إسلامية جديدة. قام عبد الوهاب أفندى وهو محرر هذا الباب فى مقدمة ما كتبه بتعريف الأصولية على أنها نقيض التنوير والعلمانية والديمقراطية والقومية والماركسية والنسبية، بشكل يجعل الأصولى ينظر إلى «الآخر» على أنه يقف فى دائرة الجاهلية والكفر، مثلما كان تيارا الإيمان والكفر يقفان على طرفى نقيض منذ فجر التاريخ، الصحيح والخطأ، الجيد والسيئ، الدين والشرك، الإيمان والكفر. فالكفر يتجلى فى فلسفة اليونان فى دورة زمنية، وفى دورته الثانية يتجلى فى الفردية أو الوجودية..(٦)

فمن الأصولى؟ هل الأصولى أكثر أصولية من رسول الله ﷺ؟ فعندما يعترف الرسول الكريم ﷺ بالآخر رسميًا، ويحاوره بكل هذا الأدب والجمال الذى يُضْرب به المثل، أليس أحرى بهذا الأصولى أن يتعلم هذا الأسلوب فى الحوار من الرسول الكريم؟ وهل هذا الأصولى كما يقول المثل بمثابة مربية أكثر رحمة بربيبها من الأم نفسها؟ حقيقة الأمر أننا بالإضافة إلى حاجتنا لمعرفة الآخر ولنقد الآخر فى حاجة ماسة أيضًا لأن ننقد أنفسنا. والمقصود بأنفسنا هم هؤلاء الذين يتكلمون باسم الإسلام والمسلمين.

من الموضوعات التى تتسم بدرجة كبيرة من الأهمية، أن الإسلام يعترف بالآخر رسميًا، حتى وإن كان هذا الآخر كافرًا أو مشركًا أو وثنيًا أو يدين بأحد الأديان الأخرى سماوية كانت أو وضعية، ويعترف أيضًا بالحوار مع هذا الآخر، حوار حقيقى وليس صوريًا أو شكليًا، حوار من أجل الوصول إلى الحقيقة وليس محاولة لنفى الآخر.

والمثير للاهتمام هنا هو أنه عندما تجعل طائفة من نفسها محورًا للحقيقة ومدارها الذى تدور عليه، تَعُدُّ الآخر على باطل ومنحرفًا عن الحقيقة، ولن يتوقف هذا البطلان والانحراف فقط عند غير المسلمين، بل سيتعداهم إلى مذاهب وجماعات أخرى من المسلمين. وكمثال حادث بالفعل سوف نناقش نظرة بعض الجماعات الأصولية السنية فى أفغانستان ومصر وغيرهما تجاه الشيعة من ناحية، ومن الناحية الأخرى نظرة بعض الأصوليين الشيعة فى نفيهم لمذهب أهل السنة بشكل مطلق، وذلك حتى يتسنى لنا أن نرى من هذا «الآخر» الذى لا يمكن حتى مجرد الكلام معه؟ وقد حدث لى أن التقيت يومًا عالما أصوليا مصريا، ولم يكن على استعداد لأن ينظر فى وجهى أصلاً، فقد كان يعتبر مثل هذا السلوك الاجتماعى مخالفًا للإسلام!

فأين حوار الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مع أحد المشركين والذى ورد نصه فى سورة سبأ من حوار هؤلاء الممثلين الرسميين المدعين فى تمثيلهم الرسمى للإسلام والتحدث باسمه؟

فيما يتعلق بالحوار مع الآخر، ذلك الحوار الذى يتحتم أن يتطرق إلى النقاش والجدل وتبادل وجهات النظر، يقول القرآن الكريم: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

إن الدعوة إلى الله تعالى والكلمة وسيلتها، لابد أن تتأسس على الحكمة و«الكلم الطيب». وعندما نواجه فى حوارنا بالجدل، أى عندما يمتنع الطرف الأخر فى الحوار عن قبول كلامنا ووجهة نظرنا، عندها يجب علينا أن نجادله بأسلوب أطيب وبالتى هى أحسن. فإلى أى مدى يختلف هذا الأسلوب وهذا المنهج فى الدعوة إلى الله عن تلك الأساليب التى لا تتورَّع عن قتل الأبرياء والأطفال والمرضى و«ترى فى الباطل إكسيرًا وعلاجًا ناجعًا». وفضلاً عن الآية ١٢٥ من سورة النحل، ثمة آيات أخرى فى القرآن الكريم استخدمت فيها كلمة «أحسن» في وصف ما يجب أن تكون عليه مواجهة الآخرين: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، والعلامة الطباطبائى يفسر كلمة «أحسن» الواردة فى هذه الآية بأسلوب المناظرة المبنى على أدب الحوار بالكلم الطيب المتعفف عن السب والقذف وسوء الخلق وسوء التصرف. ومناسبة نزول هذه الآية كانت قيام المشركين بإهانة الرسول الكريم ﷺ، عندما كانوا يقومون بسبه وقذفه ويصمونه بالجنون والسحر، وكان بعض صحابته ﷺ يتحدثون بتشدد وعنف فى مناظراتهم لهؤلاء المشركين، ويَعُدُّونهم من أهل الجحيم، بينما يعدون أنفسهم من أهل الجنة. هذا الأسلوب فى المناظرة والتعامل والحوار كان يبعث فى الغالب على إشعال نيران العداوة والعنف وتأججها بشكل أكثر فى جانب المشركين؛ فكانوا يتمادون فى توجيه أذاهم للرسول ﷺ، وكانوا يبادرون بسب المسلمين وتعذيبهم بل وحتى قتلهم. ومع هذا يوجه الله تعالى أمره للمسلمين بأن يجادلوهم بالتى هى أحسن. وهناك آيات أخرى فى القرآن الكريم تماثلها:

مثل قوله تعالى: ﴿قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وحينما يوجه القرآن الكريم خطابه بكلمة الناس فهو يقصد الناس جميعًا؛ جميع البشر بلا استثناء يجب التحدث معهم بالحسنى[٧]. وكأن القرآن الكريم الذى هو دستور المسلمين وجوهر الدين الإسلامى وأساسه يوصى بجعل الحوار الطيب الهادئ البناء بمثابة المحور الأساسى لأسلوب مواجهة الآخر. فالحوار هو القاعدة والأصل، أما الاستثناء فهو يأتى فى حالة تعرض حياة المسلمين وبقائهم للتهديد الجدى المباشر، وهذا الاستثناء هو «الجهاد». ولأن «الجهاد» تعرض لسوء فهم وتشويه كبير من قبل ناقديه الغربيين، وكذلك من قبل كثير من الجماعات الإسلامية المتشددة التى أدركت عن الجهاد مفهومًا مغايرًا تمامًا عن مفهومه الحقيقى، فسوف نخصص صفحات تالية للحديث عنه.

إن النقطة المهمة التى يمكن أن تكون وراء انتهاج مثل هذا المنهج فى الحوار أو يمكن أن تكون فلسفة له هى أن الإسلام الذى يعد القرآن الكريم كتابه السماوى المقدس، هو أساسًا ثورة فى علم الكلام، هو ثورة الكلمة. وعندما تطرح الكلمة، فهى فى حاجة إلى «مستمع أو متلق»، والعقيدة التى تستخدم الكلمة كأفضل وسيلة لديها فى الدعوة، وتريد للكلمة أن تعرف طريقها إلى ذهن المتلقى وعقله وروحه وحياته لا يمكن أبدًا أن تستخدم فى حوارها لغة العتاب والغلظة. إنها ـ أى العقيدة ـ يجب أن تتحدث فى مقابل الآخر ومواجهته بأسلوب «أحسن» وليس بأسلوب «حسن» فقط.

وهنا نجد العلاَّمة محمد حسين فضل الله[٨]، فى كتابه «الحوار والتفاهم فى القرآن الكريم» يحلل منهج الحوار إلى خمسة عناصر:

١ ـ شخصية الفرد الذى يدير الحوار.

٢ ـ شخصية الطرف الآخر فى الحوار أو المناقشة.

٣ ـ خلق جو من الهدوء والسكينة يسمح بالتفكير الحر.

٤ ـ تحديد موضوع الحوار وتوضيحه أمام طرفى المناقشة.

٥ ـ أساليب الحوار والمناقشة.

وعندما يبدأ نفاد الصبر والغضب والعنف، فإن هذه العناصر الخمسة سوف تتضارب ويلحقها التشوه والنقصان، ولن تكون فى نقطة تعادل واتزان. إن السمة المشتركة التى تجمع تقريبًا جميع المتشددين والمتطرفين هى أنهم يرون أنفسهم مُلاَّك الحق المطلق والحقيقة المطلقة، وينتظرون من السامع أو المتلقى أن يكتفى فقط بالإنصات لما يقولونه وقبوله، وكأنهم أرادوا منذ البداية أن يدفعوا بمخالفهم وعدوهم إلى الجحيم فى نهاية الحوار، وكأنهم يعدُّون أن واجبهم ورسالتهم تتركز فى أن يكون لهم دور مباشر فى إرسال المخالف أو العدو إلى الجحيم! ويستندون إلى رأيهم الخاص ومزاجهم فى تحديد ماهية هذا العدو المخالف. بينما نجد القرآن الكريم يتحدث عن المسيحيين واليهود بصفتهم «أهل الكتاب»[٩]. وطبقًا لما ورد فى القرآن الكريم ثمة كلمة سواء تجمع بين المسلمين وغيرهم من المسيحيين واليهود والمجوس على ألا يعبدوا إلا الله، ولا يشركوا به شيئًا ولا يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، وعلى هذا الأساس

يمكنهم التعايش معًا. والنقطة المهمة هنا هى استخدام القرآن الكريم لكلمة «تعالوا» التى هى دعوة معنوية وأيضًا دعوة للسمو، وكذلك دعوة للتقارب والتعايش والصداقة. ومن حسن المصادفة أننا نجد القرآن الكريم قد استخدم كلمة «أحسن» أيضًا فى الموضع الذى تحدث فيه بشكل خاص عن أسلوب الحوار ومنهجه مع أهل الكتاب:

يقول الله تعالى: ﴿**ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلاَّ بالَّتى هى أحْسنُ إلاَّ الَّذين ظلمُوا منْهُمْ وقُولُوا آمنَّا بالَّذى أُنزل إليْنا وأُنزل إليْكُم وإلهُنا وإلهُكُم واحدٌ ونحْنُ لهُ مُسْلمُون**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهنا نجد الإمام الرازى يعلق فى تفسيره على هذه الآية بأن الله تبارك وتعالى قد بين لنا الاختلاف بين أسلوب الحوار مع المشرك وإرشاده ودعوته، وبين أسلوب الحوار مع أهل الكتاب ودعوتهم(١٠).

أما العلامة الطباطبائى فنجده فى معرض تفسيره لهذه الآية، يورد تعريفًا لطيفًا حول قوله تبارك وتعالى ﴿**بالَّتى هى أحْسنُ**﴾ فيقول: إن المجادلة تنتهى إلى الحسنى إذا لم تنطو على أى حدة أو طعن أو إهانة، فمن حسن المجادلة أن يرافقها العطف والود والمداراة واللين، حتى لا يتأذى الطرف الآخر فى الحوار - أى الخصم - ويحس المجادل بأنه يقترب منه، هذا التقارب سوف يكون مدعاة لأن يتفقا بعضهما مع بعض ويصلان معًا إلى الحقيقة دون لجاجة أو تردد. فعندما يسود اللين والمحبة فى الكلام والحوار بينهما، يزداد الحوار حسنًا على حسن بتقاربهما، وفى النهاية يصير أسلوب هذا الحوار، والجدال أحسن الأساليب، ويصير بالتى هى أحسن(١١).

وبصرف النظر عن أهل الكتاب الذين توجد فى النهاية بينهم وبين المسلمين - كما يشير القرآن الكريم - كلمة سواء وأسس إيمانية مشتركة، فعلى أساس رؤية القرآن الكريم يجب أن يكون أسلوب الحوار والجدال بحيث يفضى فى النهاية إلى أن يتحول عدوك المجاهر بالعداوة إلى صديق مقرب وولى حميم: وتحول «العدو» إلى «ولى حميم» ورد فى آية بديعة من آيات القرآن الكريم، وردت فيها أيضًا كلمة «أحسن» ضمن طرحها لأسلوب ومنهج المناظرة حتى مع العدو ومجادلته، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿**ومنْ أحْسنُ قوْلاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنَّنى من الْمُسْلمين** (٣٣)

﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ ـ ٣٥].

فالقرآن الكريم يوصى هنا بالتحدث بالتى هى أحسن مع المخالف المعاند الذى لا يستمع إلى كلام الرسول ﷺ، بل وحتى الذى يأمر أتباعه والمقربين إليه بألا ينصتوا لآيات القرآن، ويوصى بتحمل مساوئ هذا المعاند فى القول والفعل ودفعها بحسن الخلق والعطف والمحبة. هذا الأسلوب هو الذى يحول العدو إلى صديق، وهى ليست بالصداقة العادية، بل صداقة تتسم بالحميمية والعطف. ويعلق الإمام الرازى على قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بأن هذا الجزء من الآية يقصد به «واجه جهالاتهم وسفههم بأحسن أسلوب، لا تغضب أمام هذا السفه، ولا ترد عليهم بقول يؤذيهم؛ ولا تتجنبهم، بل اعمل على إحيائهم بأخلاقك الحسنة، ابعث فيهم حياة جديدة حتى يكفوا فى النهاية عما يفعلونه من سوء قول أو فعل»[١٢].

هذا الأسلوب الحسن الذى يوصى به القرآن الكريم فى التعامل مع الآخرين ـ أهل الكتاب ـ والمخالفين والأعداء لا يتوقف فقط على هذه الوصايا الأخلاقية والعاطفية بل يتعداها إلى ما يتعلق بباقى الرسل وأنبياء الديانات السماوية الأخرى، فبنفس هذا الأسلوب الحسن الجميل، صور القرآن الكريم حياة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وبخاصة إبراهيم وموسى وعيسى، وأيضًا مريم عليها السلام. فبينما نجد القرآن الكريم يتحدث بشكل موجز للغاية فيما يتعلق بحياة محمد ﷺ؛ نجده يتحدث بإسهاب وبالتفصيل عن طفولة موسى وعيسى عليهما السلام. فالقرآن الكريم لم يصرح مطلقًا بأى اسم من أسماء زوجات الرسول ـ رضى الله عنهن ـ وبخاصة زوجته خديجة التى كانت رفيقة وحدته فى مكة، وابنته فاطمة رضى الله عنهما، بينما نجده يتحدث بالتفصيل عن حياة مريم العذراء سلام الله عليها، مولدها، أسلوبها فى الصلاة والصيام وطعامها. هذا الأسلوب الحسن الجميل البليغ الذى تناول به القرآن الكريم حياة مريم العذراء وعيسى عليهما السلام عندما سمعه النجاشى ـ ملك الحبشة ـ والقساوسة ورجال الدين المسيحى يتلى على لسان جعفر بن أبى طالب غمرت الدموع وجوههم[١٣]؛ حتى بللت ما كان بأيديهم من كتب مقدسة.

فقد سأل النجاشى جعفر بن أبى طالب: «أمعك شىء من هذا القرآن الذى جاءكم به محمد؟» قال: «نعم». قال النجاشى: «اقرأه علينا». فبدأ جعفر يتلو فى خشوع: «بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.. السورة» [مريم: ١ ـ ٣]. وما إن مضى جعفر فى قراءة جانب من سورة مريم، حتى غلب البكاء على النجاشى والقساوسة الحاضرين حتى بللت الدموع ملابسهم»[١٤].

كما نجد الرسول ﷺ يقول فى رسالته التى بعث بها إلى النجاشى: إنى لأشهد أن عيسى ابن مريم نبى الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن مريم أنجبت المسيح من نفخة إلهية، مثلما خلق آدم من غير أب أو أم»[١٥].

عندما سمع النجاشى سورة مريم بصوت جعفر بن أبى طالب، قال: «إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة»[١٦].

هذا التعبير الذى صاغه النجاشى يمثل فى الحقيقة زاوية صحيحة للرؤية؛ لماذا؟ لأن الإسلام أساسًا لا ينفصل فى جذوره عن الأديان السماوية الأخرى المسيحية واليهودية. فالإسلام طبقًا لآيات القرآن الكريم هو فى الأساس اسم للدين الذى دعا إليه أولو العزم من الرسل فى ظروف تاريخية مختلفة ومتفاوتة. وبناءً على آيات القرآن الكريم الذى يعد المصدر الأصلى والأساسى لمعرفة دين الإسلام، فإن هذا الدين لا يعترف أبدًا بالتفرقة على أى وجه من الوجوه بين أنبياء الله ورسله [البقرة: ١٣٦]. بل إن البيان القرآنى يؤكد أن جميع الأنبياء مبلِّغون لدين واحد بصور متنوعة، وهو نفسه دين الإسلام.. والقرآن الكريم عندما يذكر أحيانًا كلمة «الإسلام» فإنه يقصد بها ذلك الدين التوحيدى المشترك، أو بتعبير آخر «دين الله» الذى قام بتبليغه جميع أنبيائه ورسله، ولا دين سواه يقبل عند الله تعالى، [آل عمران: ١٩، والمائدة: ٤٤][١٧].

هذه النظرة أو هذا النهج الذى ينظر به القرآن الكريم إلى سائر الأديان السماوية قد استوجبت على سبيل المثال:

١ ـ أن يذكر القرآن اسم «موسى» عليه السلام ١٣٦ مرة.

٢ ـ واسم «عيسى» عليه السلام ٢٥ مرة، و«المسيح» ١١ مرة، و«مريم» ٣٤ مرة.

٣ ـ واسم «إبراهيم» عليه السلام ٦٩ مرة.

٤ ـ أما اسم «محمد» فلم يذكر سوى ٤ مرات، واسم «أحمد» مرة واحدة. هذه الإشارات تثبت بوضوح كيف ينظر الإسلام والقرآن الكريم إلى الأديان الأخرى، وأنه يدعو إلى التعايش مع أتباع الديانات الأخرى، ومنهم المسيحيون واليهود.

لقد حاول «برنارد لويس» مرارًا وفى مواضع كثيرة أن يصور الإسلام على أنه دين لا يقبل الآخر ولا يتحمله. «برنارد لويس» هذا الذى اعتبره موقع «آمازون» فى معرض تقديمه لكتابه «What Went Wrong?» أعظم مؤرخ غربى وأكبر خبير فى شئون الشرق الأوسط»[١٨]، قال فى حديث تليفزيونى حول مفهوم الجهاد أجراه معه «إيقان سالمون» وتم بثه على شبكة تليفزيون « C.B.C News World»:

«عندما يقف عالم دين مسلم أمام عالم دين مسيحى ليصيح أحدهما فى وجه الآخر: ما أنت إلا كافر، ومصيرك إلى جهنم. فإن كل واحد منهما يفهم جيدًا معنى كلام الآخر؛ لأن كلا منهما يتحدث فى هذه الحالة عن شىء واحد. فجهنم بالنسبة لكليهما متطابقة تمامًا، أما الجنة بالنسبة لكل واحد منهما فيمكن أن تكون مكانًا مختلفًا عن الجنة التى يقصدها الآخر!»[١٩].

من المؤكد أن أى صراع أو عراك يمكن لأى كلام أن يقال فى معرضه، ولكن كيف يمكن لعالم دين مسلم بناء على أسسه ومبانيه الفكرية الإسلامية أن يَعُدَّ عالمًا فى الدين المسيحى ومؤمنًا بوجود الله، كافرًا؟ وفى جانب آخر من هذا الحديث التليفزيونى يقول «لويس» فى تحليله لكلمة «الجهاد» وهو التحليل نفسه الذى تكرر وروده فى كتبه وأبحاثه، يقول:

«طبقًا للشريعة الإسلامية وقوانينها، فإن الحرب مشروعة ضد أربع جماعات:

أ ـ ضد الكفار أى غير المسلمين، ب ـ ضد المرتدين، جـ ـ ضد اللصوص وقطاع الطرق، د ـ ضد المتمردين والمعتدين».

وهنا علىّ أن أذكر نقطة أشرت إليها من قبل، وهى مسألة خلط الموضوعات النظرية وأسس العقيدة مع بعض النظريات والرؤى التى تطرحها بعض الجماعات الإسلامية،

أو بعض الشخصيات كالكلمات التى بثها «بن لادن»، وتعميم هذا الكلام على الإسلام، هو الأسلوب الذى يستخدمه «برنارد لويس» دائمًا. ولكى ندرك مدى تطبيق منهجه هذا تجاه المسلمين على ما يقوم به اليهود، وبالتحديد ما تفعله دولة إسرائيل، يكفى أن نعود إلى الحديث الذى دار معه فى هذا الحوار التليفزيونى. فعندما وجه إليه سؤال: «ألم يؤد احتلال أرض الفلسطينيين إلى تخلفهم الاقتصادى والصناعى؟» أجاب قائلاً: «إن إسرائيل مجتمع مفتوح، يتمتع بحرية الصحافة وحرية الرأى والتعبير، وهو شىء لا يوجد فى أى مكان آخر. . . . وما أدى إلى الخراب، ليس الاحتلال، بل الإرهاب».

وعندما سأله «إيڤان سالمون»:

«ليس الاحتلال، بل الإرهاب! ألا يثبت الواقع أن أرضهم ـ أى الفلسطينيين ـ محتلة بالفعل، ولا يملكون أى حق فى تقرير مصيرهم؟ فما سبب هذا الإرهاب؟ تفضل بالتوضيح».

قال «لويس»:

«الإرهاب يعطل النشاط الاقتصادى ويوقفه. قبل بداية موجة الإرهاب قبل عدة سنوات ـ يعنى قبل الانتفاضة ـ كانت هناك مستويات عالية من النشاط الاقتصادى فيما بين دولة إسرائيل والأرض المحتلة [وهنا يتحتم علينا أن نوجه الشكر للسيد لويس على أنه استخدم كلمة «الأرض المحتلة» تعبيراً عن أرض الفلسطينيين] كان التبادل التجارى والبيع والشراء ساريا، كان الناس يسافرون ويتنقلون، حتى إنه كنموذج معروف للجميع، كان كازينو أريحا مكانًا يتردد عليه كثير من المقامرين الإسرائيليين، وكانوا ينفقون فيه مبالغ طائلة من أموالهم. إن الاحتلال بالقطع شىء غير طيب، وأنا أظن أنه من الأفضل إنهاء الاحتلال إن أمكن، ولكن لا يمكن أن يقال إن الاحتلال هو السبب فى ظهور هذه الأزمة الاقتصادية. هذا غير صحيح، فالأزمة الاقتصادية هى نتيجة مباشرة للإرهاب»[٢٠].

هذه النظرة الغريبة التى تصدر عن أعظم مؤرخ غربى، كما يقول موقع آمازون، نقلتها هنا حتى تتضح غلظته السياسية وتعنته وتوجهه السياسى البين فى حكمه على

الوقائع والأحداث ورؤيته لها. هذا النموذج ومعه نماذج أخرى تظهر بوضوح إمكانية تأثير الموضوعات النظرية والتاريخية على القارئ فى البداية، وما هى إلا ستار وغطاء لطرح موضوعات ومسائل أخرى، وهى تلك الموضوعات والمسائل التى لا يستطيع «برنارد لويس» بالقطع أن يدافع عنها بشكل مباشر وصريح.

وما أشرت إليه من «الاستنتاج النظرى من الوقائع والأحداث التاريخية» يشاهد كثيرًا فى مؤلفات «لويس» وغيره من المستشرقين أو الباحثين الغربيين فى شئون الإسلام. فهل يمكن ـ طبقًا لهذا المنهج ـ عَدّ أفعال الكنيسة فى العصور الوسطى، تلك الأفعال التى وصفها «برتراند راسل» فى كتابه «تاريخ الفلسفة الغربية» بأنها «جهاز البابا فى عصر الظلمة» ذلك العصر الذى تثبت تفاصيل أحداثه التاريخية قتل الأبرياء، ومعاداة الفكر والعلم والابتكار، هل يمكن عَدّ أفعال الكنيسة فى ذلك العصر نابعة من تعاليم المسيح؟ بينما نعرف جيدًا أن أيًا من هذه الوقائع والأحداث ليس له أدنى علاقة أو رابط يربطه بعيسى المسيح والعهد الجديد أو بالمسيحية بشكل عام. وكذلك الحروب الصليبية التى كان من أهم نتائجها: «ذبح أعداد هائلة من اليهود، ومن نجا منهم من الذبح والقتل صودرت أمواله، وتم تعميده قسرًا وجبرًا، وكذلك الأعداد الكثيرة من اليهود الذين قتلوا فى أثناء الحملة الصليبية الأولى فى ألمانيا، وكذلك أثناء الحملة الصليبية الثالثة عندما كان ريتشارد قلب الأسد يجلس على عرش إنجلترا، ومدينة يورك التى بدأ فيها تنصيب أول إمبراطور مسيحى كانت مسرحًا لأفظع ما تعرض له اليهود من مذابح»[٢١]. كل هذا لم يكن له أدنى علاقة بتعاليم المسيح.

وكما أنه لا يجوز حسبان الجرائم التى ارتكبتها الكنيسة فى العصور الوسطى محسوبة على تعاليم المسيح والمسيحية الحقيقية أو نابعة منها، فكذلك يكون من البديهى أيضًا عدم جواز عدّ تصرفات طالبان مثلاً، ومذابحهم التى قاموا بها ضد الشيعة وغيرهم، أو سحقهم للنساء فى حكومتهم، محسوبة على الإسلام أو نابعة من تعاليمه. بل على أقصى تقدير يمكن القول بأن جميع الأديان السماوية قد تعرضت لتحريف فى فهم مبادئها وأسسها وتعاليمها من قبل البعض من أتباعها الذين يقومون بأفعالهم وتصرفاتهم باسم الدين، وبناء على معتقدات دينية منحرفة وبعيدة عن حقيقة الأديان السماوية ومبادئها وتعاليمها، أما أفعالهم وتصرفاتهم هذه فلا يمكن أن يربطها بالدين أى رابط أو صلة.

لقد صور« ديستوفيسكى» ـ الروائى العظيم الفذ ـ فى روايته «الأخوة كرامازوف» تلك الرواية التى نشرت ضمن مجموعة «أعظم الكتب» كإحدى الروايات العظيمة فى التراث الغربى»[٢٢]، صورًا تناقض جوهر الدين وحقيقة المسيحية مع واقع الكنيسة من خلال مواجهة عجيبة تصور حدوثها بين المسيح والأسقف فى أحداث هذه الرواية.

لقد تحولت المسيحية إلى شريعة، ولبست الشريعة رداء السلطة والقوة والثروة، وتحول تاج الشوك الذى كان يكلل رأس المسيح إلى تاج ذهبى، برغم عدم وجود مكان لابن الإنسان يضع رأسه عليه: «قال له عيسى: للثعالب أوكارها، ولطيور السماء أعشاشها، لكن ابن الإنسان ليس له مكان يضع رأسه عليه»[٢٣].

لقد صارت أعظم القصور وأفخمها مكانًا لسكنى الأساقفة. المواجهة التى صورها «ديستوفيسكى» بين المسيح والأسقف هى مواجهة بين «الإيمان والشريعة الحاكمة الجامحة». وفى رأيى أن «الأخوة كرامازوف» يمكن عدُّها أهم رواية تصور حياة الإنسان، كما يمكن أيضًا عَدُّ الفصل الذى حوته باسم «المفتش الأعظم» أهم فصل فى الأدب الروائى طوال التاريخ. لقد استطاع «ديستوفيسكى» بقدرته الإبداعية المنقطعة النظير أن يضع لوحة أمام أعين جميع الأمم والشعوب وجميع الأجيال وأمام التاريخ تحكى صورة خالدة لحياة البشر. ومن المهم جدًا هنا أن أشير إلى أن «ديستوفيسكى» نفسه كان مسيحيًا مؤمنًا[٢٤]. يوضح «ديستوفيسكى» لنا حقيقة محيرة عندما يسأل: هل تستطيعون عندما يمر قطار بأقصى سرعة فوق رءوسكم، أن تظلوا فى حالة نوم بين خطى سكة الحديد[٢٥].

التناقض بين الإيمان والغطرسة، التناقض بين حرية الإنسان وعبوديته، التناقض بين المحبة والسلطة، يتجلى فى هذه المواجهة بين المسيح والأسقف: «فى أثناء عصر التفتيش، يظهر المسيح ذات يوم بين جموع البشر فى مدينة «إشبيلية ـ سيڤيل ـ Seville» بإسبانيا، وعلى الفور تعرفه الجموع حيث ظهر فى هدوء وسكينة دون أدنى إثارة للانتباه، وعجبًا! تجمعت حوله الجموع.. وصار يتحرك فى وسطهم بابتسامة هادئة تنم عن رحمة وشفقة لا حدود لها. فقد اشتعلت شمس المحبة فى قلبه، بينما أخذ النور والبصيرة والقوة تشع من عينيه، وبمجرد أن ألقى بشعاعها على الجمع، أهاج قلوبهم

بالمحبة والشوق، مد يده ليقدسهم ويباركهم، وصار المرضى والمتعبون يشفون وتملؤهم السكينة من لمسه بل وحتى من مس هدب ثوبه. . فتبكى الجموع وتأخذ فى تقبيل تراب قدميه، بينما ينثر الأطفال الورود عند قدميه وينشدون صائحين «خلصنا يا يسوع».

الكل يصيح فى تكرار: «إنه هو، إنه هو! بالتأكيد هو نفسه. لا يمكن لأحد غيره أن يكون هو!» وحيث يخرج فى تلك اللحظة مشيعون من كنيسة «إشبيلية» يحملون تابوتًا صغيرًا أبيض اللون مكشوفًا من أعلى، يتوقف هو أسفل درج الكنيسة. داخل هذا التابوت كانت طفلة ذات سبع سنوات ترقد فى سلام، كانت الطفلة الوحيدة لأحد سكان المدينة المشهورين، يرقد جثمانها فى سلام تكسوه الورود، وتأخذ الجموع فى الصياح فى أمها الباكية. «سوف يحيى طفلتك ويبعثها من موتها». وإذا بقسيس كان بصدد تشييع الجنازة يقف مبهوتًا مندهشًا ويقطب جبينه غضبًا. أما أم الطفلة فقد ألقت بنفسها نائحة عند أقدامه، وتمد يديها إليه قائلة: «إذا كنت أنت هو، فابعث ابنتى من موتها!». وإذا بصفوف المشيعين يتوقفون بالجنازة، ويضعون التابوت فوق الدرج عند أقدامه. فينظر هو فى رحمة وشفقة، وتتحرك شفتاه فجأة وفى حركة بطيئة ليقول: «أيتها الصبية، انهضى!». فتنهض الصبية، لتجلس فى التابوت وتنظر حولها. وبعيون مفتوحة تبتسم فى عجب وتضغط على باقة الورود البيضاء التى كانت قد وضعت فى يديها.

وبينما كان الصياح ونهنهة البكاء والاضطراب يتصاعد بين الجموع، إذا بنيافة الكاردينال، المفتش الأعظم يمر أمام الكنيسة، رجل مسن له من العمر تقريبًا تسعون عامًا، طويل القامة وعظيم البنية، ذو وجه متغضن وعينين متهدلتين، ما زال فيهما بصيص من نور وكأنه شرر نار. وبدلاً من عباءة الأسقفية الفخمة الموشاة بخيوط الذهب والفضة التى كان يرتديها بالأمس فى أثناء حرقه لأعداء كنيسة روما، بدا الآن وقد ارتدى خرقة رهبانيته القديمة البالية الخشنة، بينما يتبعه مباشرة مساعدوه وعبيده وحراسه المقدسون. وبمجرد رؤيته لهذه الجموع المحتشدة يتوقف ليتفحصهم من بعيد، فيرى كل شىء. يرى وضع التابوت عند أقدامه، وإحياء الطفلة من موتها، فيكفهر وجهه، ويعقد حاجبيه الكثيفين الرماديين، وتتقد فى عينيه نيران الشؤم، فيمد يده مشيرًا إليه بإصبعه ويأمر حراسه بالقبض عليه. هكذا هى سلطته وقوته، ولأن الناس

كانوا لا يزالون أسرى طاعته والانقياد لأوامره، فقد أفسحت الجموع الطريق أمام الحراس على الفور، وقام الحراس بالإمساك به فى صمت مميت وأخذوه معهم. وإذا بالجموع تتساقط فى لحظة وفى حركة جسد واحد على الأرض أمام المفتش الأعظم. بينما هو مستمر فى مباركته للناس ويمضى مع الحراس فى صمت.

يأخذ الحراس السجين إلى سجن ضيق تحت قبو فى القصر القديم الخاص بنيافة «المفتش الأعظم»، ويغلقون عليه الباب. وفجأة يفتح باب السجن الحديدى ليدخل نيافة المفتش الأعظم بمفرده حاملاً مصباحًا فى يده، ويغلق باب السجن وراءه على الفور، ويقف فى مدخل الباب ويأخذ فى تفحص وجهه لدقيقة أو دقيقتين، بعدها يتقدم فى بطء، ويضع المصباح فوق منضدة ويقول: «أهذا أنت؟ أنت؟» ودون أن ينتظر إجابة يضيف مباشرة:

«لا تجب، اسكت، ما الذى تستطيع أن تقوله حقًا؟ أعرف جيدًا ما سوف تقوله. وليس لك الحق فى أن تزيد كلمة واحدة على ما قلته قديمًا. إذن فلماذا جئت؟ ألكى تكون سدًا فى طريقنا؟! إذن فقد ظهرت كى تكون سدًا فى طريقنا. وأنت نفسك تعلم هذا تمامًا. ولكن هل تعلم ما الذى سوف يحدث فى الغد؟ أنا لا أعلم من أنت ومن تكون. ولا يهمنى كذلك إذا كنت أنت هو أم أنك مجرد شبيه له. لكن سوف أحاكمك فى الغد، وسوف أحرقك على المشنقة كأشد الناس كفرًا. وتلك الجموع التى كانت تقبل قدميك اليوم هى نفسها التى سوف تسارع غدًا بإشارة منى إلى جمع الحطب وتكديسه تحت قدميك لإحراقك. هل تعلم هذا؟». ويستمر دون أن يرفع عينيه لحظة واحدة عن سجينه فيضيف بفراسة العالم: «بلى، ما أكثر ما تعلمه؟».

إن هذه المواجهة بين المسيح والأسقف هى مواجهة بين حقيقة الدين وواقعه، مواجهة بين الإيمان والشريعة، ومواجهة بين العرفان والسلطة. السلطة التى تتجلى فى فخامة الكنيسة وأبهتها وفى فخامة قصر الأسقف وحراسه ومقدميه وتابعيه، وأمره بالقبض على المسيح وإلقائه فى جب أسفل قصر الأسقف. فإذا أردنا هنا أن نصدر حكمًا بشأن المسيحية، فأى صورة أو قراءة نقبلها عنها؟ فهل نقبل صورة المسيحية حسب رواية المسيح، أو حسب رواية الأسقف؟

يوضح «ديستوفيسكى» هذين الانطباعين عن المسيحية فى الحوار بين المسيح

والأسقف. وكأن تاريخ كل الأديان بطوله كله قد لخص فى هذا الفصل الخامس من الرواية وتركز فى هذا الحوار. فالشريعة عندما تتلبس بلباس السلطة، أول ما تفعله هو ذبح الإيمان عند أقدام السلطة. ونجد «ديستوفيسكى» يطرح هذا التحليل بشكل أوضح وبصراحة أكبر فى مذكراته اليومية:

«ما زالت هناك أشياء كثيرة لابد من الحديث بشأنها، وطالما بقى القلم فى يدى، فسوف أستمر فى الحديث عنها؛ لكنى أذكر هنا خلاصة أفكارى فى عجالة: إذا كان أهلنا قد اكتسبوا نور الإيمان منذ القدم بقبولهم لجوهر حقيقة المسيح وتعاليمه، ووصلوا إلى هذا النور الحقيقى بصحبة المسيح، فإن علوم الغرب على هذا الأساس الفكرى الواضح وهذا الأساس التنويرى من تعاليم المسيح، سوف تكون بركة على أهلنا. فأهلنا - على عكس ما حدث فى الغرب - لم يشوهوا صورة المسيح، كما أنهم فى أوروبا أيضًا - على عكس ما يعتقد الليبراليون - لم يكونوا هم الذين قاموا بتشويه صورة العلم والمعرفة والتنوير، بل إن الكنيسة الغربية هى التى قامت بتشويه هذه الصورة بتحويل نفسها إلى سلطة بطريركية من نوع الحكومة الرومانية، وبعد تجسيد هذه السلطة فى جهاز البابا، حولت العلم والمعرفة والتنوير إلى هذه الصورة المشوهة. وفى الحقيقة لم يعد فى الغرب أى وجود لا للمسيحية ولا للكنيسة برغم وجود مسيحيين كثيرين يعيشون هناك وسوف يظلون كذلك. إن المذهب الكاثوليكى لم يعد فى حقيقة الأمر من المسيحية فى شىء، فهو يتحول شيئًا فشيئًا إلى الوثنية. بينما نجد المذهب البروتستانتى يسير هو الآخر بخطوات واسعة صوب الإلحاد والأخلاق المتزعزعة المتغيرة دومًا»[٢٦].

فالإيمان يتغير كليّا تحت عباءة الشريعة، والشريعة تتغير تمامًا تحت رداء الثروة والقوة والسلطة. وفى هذه المرحلة - أى عندما تتلبس الشريعة برداء السلطة - نجد الأسقف يلغى المسيح؛ لماذا فعلت هذا ولمَ لم تفعل ذاك؟ يقول إيڤان: «إن ذلك الرجل الأسقف كان مهووسًا بفكره المقولب الجامد». والأسقف يقول للمسيح: استطاعت الكنيسة وهؤلاء الأساقفة أن يحطموا قيود الحرية ويزيلوا حدودها كى يهبوا السعادة للناس. يقول الأسقف للمسيح:

«ألم يكلمك الروح الرهيب، الروح الفانى المنعدم؟ هذا الروح الرهيب ألم يكلمك

فى البرية؟ وفى الكتب قيل لنا إنه وسوس إليك. أليس كذلك؟ ألا يوجد شىء أكثر حقيقة وأكثر واقعية عما أوضحه لك فى أسئلة ثلاثة وعما أجبت به أنت؟ ألا يوجد ما هو أكثر حقيقة عما سمى فى الكتب «بالوسوسة»[٢٧]؟

هذا الكلام **الذى** يصدر عن الأسقف ما هو فى الحقيقة إلا وسيلة لتحويل الإيمان إلى الوثنية. وسيلة يتحول بها الإيمان إلى محبة الشيطان وعبادته. وهنا يصبح الأسقف فى الواقع قرينًا للشيطان ومتحدثًا بلسانه. حيث يشير الأسقف فى هذا الكلام إلى حكاية وردت فى الأناجيل. فطبقًا لرواية إنجيل متى، الإصحاح ٤، ومرقص، إصحاح ١، ولوقا، إصحاح ٤: حيثما كان المسيح يواصل فى صيامه أربعين يومًا، أدخله الشيطان فى تجربة[٢٨].

«وقاد الروح القدس يسوع إلى البرية ليجربه إبليس * فصام أربعين يومًا وأربعين ليلة حتى جاع * فدنا منه المجرب وقاله له: إن كنت ابن الله، فقل لهذا الحجر أن يصير خبزًا، فأجابه: يقول الكتاب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله. فأخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على شرفة الهيكل * وقال له: إن كنت ابن الله فألق بنفسك إلى الأسفل * لأن الكتاب يقول: يوصى ملائكته بك فيحملونك على أيديهم لئلا تصدم رجلك بحجر، فأجابه يسوع: يقول الكتاب: لا تجرب الرب إلهك * وأخذه إبليس إلى جبل عال جدًا، فأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها * وقال له: أعطيك هذا كله إن سجدت لى وعبدتنى * فأجابه يسوع: ابتعد عنى يا شيطان! لأن الكتاب يقول: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد[٢٩].

فالشيطان نصير القوة والمعجزة ولقمة العيش، نصير القوة التى يرضيها ويسعدها أن يظل الإنسان فى رقه وعبوديته للشيطان، كأن يسجد أمامه مثلاً.

أما المسيح فهو نصير للكلمة، نصير للمحبة والحرية. وليس المقصود بالمعجزة هنا تلك الظاهرة الخارقة للعادة التى تثير الفكر والتفكير والعبرة والعظة فى عقل الإنسان كى ينحنى أمام عظمة الله وقدرته المعجزة، بل المقصود بالمعجزة هنا هى تلك القدرة على تعطيل العقل الإنسانى وإيقافه عن التفكير.

فكيف يمكن قبول ما كان يحدث فى محاكم التفتيش فى تاريخ أوروبا والغرب،

على أنه سجل لأعمال عيسى المسيح وتنفيذاً لتعاليمه؟ إن مثل هذه المواجهة التى صورت على حقيقتها فى عالم «ديستوفيسكى» الروائى، لها نماذج كثيرة تطابقها فى عالم الواقع. فعلى سبيل المثال نجد «ويل ديورانت» فى الفصل ٢٨ من جزء عصر الإيمان فى كتابه «قصة الحضارة» تحت عنوان «بداية عصر التفتيش»، يشير إلى ثورة «ڤالدوسيان»، ويقول: «فى سنة ١١٧٠م قام بطرس ڤالدوس الشهير، وكان من أغنياءالتجار فى ليون باستئجار عدد من الكتّاب والأدباء لترجمة الكتاب المقدس إلى لغة أهل الجنوب الفرنسى (لغة الأوك). وبعد انتهاء الترجمة، قام ڤالدوس نفسه بقراءة هذه الترجمة فى حماسة وتمعن شديد، وخرج من قراءتها بنتيجة مؤداها أن المسيحيين يجب أن يعيشوا مثلما كان يعيش حواريو المسيح، أو بعبارة أخرى يجب أن يعيشوا دون أن يكون لهم أى ملكية فردية. فقام على الفور بوهب زوجته جزءاً من ثروته، ووزع الباقى على الفقراء. وتنفيذاً لتعاليم المسيح بدأ فى الوعظ حول الفقر ومزاياه. وما لبث أن تجمعت حوله مجموعة صغيرة من «فقراء ليون ومتسوليها» حيث كانوا يلبسون مثل الرهبان، ويعيشون فى منتهى الزهد والعفاف، لا ينتعلون شيئًا، ويمشون فى الطرقات حفاة، ويتشاركون فى كل ما معهم من مال بالسوية كملك مشترك ومشاع فيما بينهم. وظلوا هكذا لفترة لا يعارضهم القساوسة ويسمحون لهم بالاشتراك فى مراسم إقامة الشعائر فى الكنيسة؛ لكن عندما أنهى بطرس ڤالدوس قراءته للإنجيل ودراسته له كلمة بكلمة وبدأ فى وعظ الناس، قام الأسقف الأعظم فى ليون بمعاتبته فى حدة، وألقى فى روعه أن الأساقفة هم فقط من لهم حق الوعظ وتوجيه الموعظة.

.. وفى سنة ١٢٢٩م قام مجلس الأساقفة فى تولوز ـ ربما بهدف منع تزايد عدد أفراد هذه الطائفة من أتباع ڤالدوس ـ بإصدار مرسوم دينى بعدم جواز امتلاك أى شخص غير الأساقفة لأى نوع من أنواع الكتب الدينية أو الأسفار المقدسة إلا سفر المزامير. وفضلاً عن أنه حتى ذلك التاريخ لم تكن أى ترجمة للكتاب المقدس إلى اللغة المحلية قد أجيزت بعد من قبل الكنيسة، قرر مجلس الأساقفة ألا يسمحوا لأحد بقراءة الكتاب المقدس إلا باللغة اللاتينية فقط، وقاموا بإحراق الآلاف من أتباع ڤالدوسيان»[٣٠].

أحرقوهم بالنار، لأن فهمهم للكتاب المقدس ومعرفتهم بما فيه كان من الممكن أن يكون بمثابة تهديد لسلطة الكنيسة؛ سلطتها المادية، وثرواتها المكدسة، وأيضًا نفوذها

وقوتها الحاكمة وسيطرتها على حياة الناس ومقدراتهم، حتى فى أخص خصائص الحياة التى لم يتحدث عنها الكتاب المقدس.

كان من الضرورى جدًا ربط حياة الناس بالكنيسة بآلاف مؤلفة من الخيوط والروابط، الظاهرة والخفية. فالديانة لم تكن فى الحقيقة كالشمس تشرق بنورها وتبعث بدفئها فوق رءوس جميع بنى البشر؛ بل كانت مستنقعًا من الزفت والقار، على المعتقدين بالدين والمؤمنين به أن يسبحوا فيه ويعلموا أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان، وليس ثمة شاطئ للنجاة.

«فى ذلك العصر وذلك الزمان كانت الكنيسة فى الواقع تعلو فوق كل شىء، وكانت أهم من أى شىء. كانت آثار الديانة واضحة فى أى أمر من أمور الحياة، فى نظام الإقطاع وفى حقوق الأسياد وواجبات عبيدهم وأتباعهم وخدامهم الذين كانوا يقسمون عليها بأغلظ الأيمان أمام الأسقف، وحيث أصبح الأساقفة ورؤساء الأديرة من الإقطاعيين الذين تملكوا الأراضى. فى الملكيات والإمارات المستقلة حيثما كان يتم تتويج الملك أو تنصيب الأمير، كان القطب الأعظم فى جهاز الأسقفية هو الذى يقوم بتتويجه ووضع التاج فوق رأسه، ويأخذ منه العهد والقسم بأن يحكم بالعدل والنزاهة والإنصاف، ويقوم بمسحه بالزيت المقدس. وفى المدينة صارت لكل طائفة من طوائف التجار والحرفيين والصناع حكم طائفة الأخوة الدينية. واختارت كل طائفة منها أحد القديسين فى الديانة المسيحية وجعلته قبلتها وملاذها. وأخذ أتباع كل طائفة يقومون بمسيرات جماعية فوجًا فوجًا فى الشوارع والطرقات خلال المناسبات الدينية وأيام الاحتفالات الدينية المقدسة»[٣١].

إن القدر المشترك الذى يجمع بين نقد المسيح عليه السلام لعلماء الدين اليهودى فى عصره والذين تحدث عنهم العهد الجديد باسم «الفريسيين» و«الصدوقيين» وبين نقد القرآن الكريم لعلماء العقيدة اليهودية والعقيدة المسيحية، هو أنهم نزعوا من الدين جوهرة الإيمان ووضعوا مكانها فص السلطة والثروة والزور والتزوير.

وإذا عرّفنا الإيمان على أنه بمثابة بؤرة الدين وجوهرته وحقيقته، وانتبهنا جيدًا إلى أن لغة القرآن الكريم أكدت أن «الإيمان» أخص من «الإسلام» وهو جوهره فى الحقيقة، يقول القرآن الكريم فى معرض الرد على الأعراب الذين قالوا: «آمنا» موجهًا

خطابه إلى الرسول ﷺ بالرد عليهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. فسوف نفهم جيدًا كيف تمكنت قشرة الشريعة السميكة والشديدة الصلابة على أيدى الفريسيين الذين كانوا علماء سطحيين فى الدين اليهودى من أن تخفى جوهر الدين وتمحوه تمامًا. «لقد كان الفريسيون أئمة قومهم فى أمور الدين وشئونه.. وقد أصبحت ديانة هذه الفرقة فى زمن المسيح عليه السلام على قدر كبير من الرياء، حيث كانوا يهتمون بالأمور الظاهرية والمظهرية والشكلية أشد الاهتمام، ولم يكن لديهم أدنى اهتمام بروح الدين وجوهر متطلباته وحقيقتها»[٣٢].

ومن الأهمية بمكان أن نورد هنا ذلك التوضيح والتفسير الذى جاء فى قاموس الكتاب المقدس حول منهج الفريسيين وطريقة قياسهم واستنباطهم «إن آراء الفريسيين وعقيدتهم الوهمية كانت تقوم على تقليد الروايات التى نُقلت عن موسى بالتواتر والمشافهة، وكانوا يعتقدون أن هذه الروايات والأقوال المتواترة تتطابق مع الأسس الإيمانية التى وردت فى الصحف المنزلة على موسى، بل وتفوقها أهمية». وهذا يعنى عندهم أن الشريعة تحظى بأهمية تفوق بكثير تلك الأسس الإيمانية، وبهذا يصبح الأسقف عمليًا أهم بكثير من المسيح، بل نجد الأسقف يقوم بسجن المسيح وإنكار تعاليمه وكلماته. هذه الازدواجية بين الشريعة والإيمان، بل والتناقض بينهما أحيانًا حدث تقريبًا فى جميع الأديان السماوية الكبرى، بل وحتى فيما يتعلق بالأيديولوچيات الوضعية التى وضعها المفكرون وأصحاب الرأى، إنها المقولة الشهيرة نفسها التى تقول: «إن ماركس لم يكن ماركسيًا!» وقد ذكر العهد الجديد بالتفصيل تلك المناقشات التى دارت بين الصدوقيين والمسيح عليه السلام. وللمسيح عليه السلام عبارة مثيرة للعجب حول منهج القياس والاستدلال لدى الصدوقيين والفريسيين. وهذه العبارة تعد مفتاحًا لفهمهم وفهم منهجهم فى القياس: «أجابهم قائلاً: فى وقت العصر تقولون الجو سوف يكون جيدًا؛ لأن السماء حمراء * وعند الصباح تقولون اليوم سوف يكون الجو سيئا؛ لأن السماء أخذت لونًا أحمر». وعندما يوجه وصاياه لحواريه يقول لهم: «احذروا خمير خبز الفريسيين والصدوقيين!»[٣٣]. والجدير بالذكر هنا هو أنه بالإضافة إلى متى فى استخدامه لتعبير «خمير خبز الفريسيين والصدوقيين» استخدمه أيضًا كل من مرقص ولوقا. ففى لوقا نجد المسيح يعنى بخمير خبز الفريسيين «تزويرهم

ورياءهم» صراحة[٣٤]. إنه ذلك التزوير والرياء والتلبيس الذى لن يظل مختفيًا على الدوام.

وبتعبير المسيح عليه السلام: «ذلك الذى قلتموه فى الظلام، سوف تسمعونه فى النور».

من المؤكد أن هذا المفهوم موجود أيضًا فى عالم الإسلام، فأحيانًا ما يؤدى فهم معين لحديث أو رواية إلى أن نضعه فى مقابل «النص المقدس: القرآن».

وثمة رأى يقول بأن الحديث له قيمة موازية لكلام الله، ويمكن اعتبار الحديث أحيانًا مرجحًا لكلام الله! ومن عجب أن الإمام الشافعى طرح مثل هذا الرأى فى كتابه الشهير «الرسالة»؛ وهو الكتاب الذى قال عنه الإمام الرازى فى مناقب الشافعى: «إن نسبة الشافعى إلى علم الشريعة كنسبة أرسطو إلى علم المنطق»[٣٥].

فالشافعى وكذلك أحمد بن حنبل وبعدهم ابن تيمية يعترفون للسنة والحديث بمكانة تماثل مكانة القرآن الكريم، ومن الطبيعى أن يكون شرحهم للسنة والأحاديث النبوية على أساس فهمهم هذا»[٣٦].

إذن كيف ننظر نحن إلى الآخرين. ومن أى موقع ننظر إليهم؟ هل من موقع إيمانى؟ هل من موقع فقهى وطائفى، هل من موقع سلطوى؟ إن كان من موقع إيمانى، فكل البشر ومنهم أهل الكتاب، المسيحيون واليهود والمجوس والصابئة لا يعدون آخرين، فهم يؤمنون بالله واليوم الآخر وبالنبوة. حتى من هم أبعد من أهل الكتاب من الناحية الإيمانية.

وفى قصة موسى والراعى التى أوردها جلال الدين الرومى فى المثنوى(*) نجد

(*) راجع المثنوى (المجلد الثانى ٢٨٠ ـ ٢٨٥ طبع مؤسسة انتشارات أمير كبير). وموسى عليه السلام فى قصة المثنوى يستمع إلى أحد الرعاة وهو يدعو ربّه بأدعية رأى موسى أنها لا تليق بأن يخاطب بها الحق تعالى، فقد كان من دعاء الراعى لربه: أين أنت كى أصبح لك خادمًا، أخيط نعلك وأمشط شعرك، أغسل ثوبك.. أقبل يدك.. كل عنزاتى فداء لك، كل آهاتى وهيهاتى هى ذكر لك». فقال موسى للراعى ويحك.. خرجت من دائرة الدين والإسلام، وأصبحت كافرًا. إن لم تمسك عن هذه الأقوال أتت نار فأحرقت العالم. فلزم الرجل الصمت و تملكه الخوف، وندم على مناجاته لربه. وعند ذاك جاء الوحى إلى موسى بعتاب الحق ـ تعالى ـ له: «قد أبعدت عنى عبدى، إنى جعلت لكل إنسان سيرة، وأعطيت لكل فرد اصطلاحًا..». وقد جدّ موسى فى البحث عن الراعى ليعتذر له. وقد وردت القصة بصور مختلفة فى المصادر العربية، انظر مثلا: العقد الفريد لابن عبد ربه، طبع مصر ٤: ٢٠٥، شرح =

الراعى بمقتضى الزمان والمكان الذى يعيش فيه وفى حدود علمه ومعرفته يتحدث مع إلهه الخاص به وكأنه صديق قديم وحميم ويقول له :

أقبل يدك وأمسح قدمك

وعند النوم آتى لأكنس مخدعك .

من البديهى أن يكون هذا «الإله» مختلفًا عن «إله» موسى ، مثلما كان هناك اختلاف بين إله موسى وإله الخضر .

فموسى كان يرى الأشياء من زاوية الشريعة ويحكم عليها كذلك من الظاهر ويتضايق وينفعل ، بينما الخضر كان يرى الأشياء نفسها من زاوية الحقيقة وآثارها وأبعادها المحيطة بها والبعيدة عنه فى الزمان والمكان . وكما هو واضح فإن نظرة موسى هذه ورؤيته التى بنيت على الشريعة ، لم تتسم بالصبر وكانت تتعجل فى إصدار أحكامها على الأشياء والظواهر من أول نظرة ولأول وهلة .

أما نظرة الخضر ورؤيته فكانت مبنية على «الاستطاعة على الصبر» . ولهذا كان يقول لموسى مرارًا : ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف : ٦٧] .

إننا عندما نناقش أسباب هذا الانتشار السريع الذى تحقق للإسلام فى القرن الأول الهجرى وكذلك نشأة الحضارة والثقافة الإسلامية وسرعة نموها وانتشارها ، فإننا سوف نجد أن أهم سبب فى ذلك إنما يتمثل فى منهج الرسول ﷺ والمسلمين فى تعاملاتهم ومعاملتهم للآخر .

كيف كانت معاملة الرسول ﷺ مع اليهود والنصارى والمجوس؟

وما الخصائص التى اختصت بها معاهداته ﷺ التى عقدها مع اليهود فى المدينة؟

من المحتم أن اليهود والنصارى عندما كانوا يرون كل هذا التمجيد والتنزيه والعظمة والاحترام الذى يصوره القرآن الكريم لموسى والمسيح ومريم عليهم السلام ، ويحسون أن هذه الآيات القرآنية تصور كذلك خلاصة عقيدتهم ومنهج حياتهم ، وكما قال النجاشى : « إن نور هذه الآيات جميعها يشع من مشكاة واحدة» ، كانوا يفتحون

= نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ٤ ، ٢٦٧ ، حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ، ٣ : ٢٢٣ ، إحياء علوم الدين ، للغزالى ٤ : ٢٤٤ .

قلوبهم للإسلام حتى وإن كانت مصالحهم السياسية والاجتماعية والقبلية والطائفية تقف حجر عثرة أمام ذلك السبيل، لكنهم عندما كانوا يختلون بأنفسهم لا يجدون أن بوسعهم إنكار هذه الآيات، وكان تعرفهم على الرسول ﷺ وارتباطهم به يزيد من تأثير هذه الآيات وجاذبيتها لديهم.

مثل هذه الرؤية «للآخر» والنظرة لصورته، علينا أن نرى، ونعرف ما تعرضت له من انحرافات وتحريف وتعقيدات وتغيير عبر التاريخ، حتى علاها الغبار وتغيرت تمامًا إلى درجة أصبحنا معها نرى مسلمين، مؤمنين، ملتزمين، أحدهما شيعي والآخر سني يمكن مع كل الأسف أن يكفر أحدهما الآخر. فعلى سبيل المثال، رأينا في ذلك اليوم الذي وقعت فيه حادثة استشهاد آية الله محمد باقر الحكيم ومرافقيه الذين كانوا معه في صلاة الجمعة في النجف، رأينا شبكة تليفزيون المنار تبث حديثًا تلفزيونيًا في برنامجها «حديث الساعة» مع حجة الإسلام السيد عمار الحكيم والمهندس «بيان جبر» حول تحليلهما لملابسات الحادث. وإذا بشخص يدعى الدكتور خفاجة يتصل من ألمانيا ضمن الاتصالات التليفونية التي تلقاها البرنامج، ويقول: «الحكيم قتله أولئك الذين يعتقدون أن الشيعة كفرة و...» لا شك في أنه جمع في عبارة واحدة كل خيوط الموضوع، لكنها الحقيقة الواقعة بالفعل. ألم يقتل الشيعة والسنة بعضهم بعضًا في باكستان وأفغانستان؟ ألم نشهد الشيعة أنفسهم وهم يقتلون بعضهم بعضًا في لبنان؟ فعلى ما يبدو أنه عندما تكون النظرة إلى الآخر نابعة من أفق محدود ومنغلقة على ذاتها، و﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ كما يقول القرآن الكريم ﴿بما لديهم فرحون﴾ [المؤمنون: ٥٣، الروم: ٣٢]. وينظرون إلى الآخر على أنه كافر ومرتد ورجيم، ويظلون دائرين في هذا الفلك طوال سنوات وقرون، يكون من البديهي ألا يبقى هذا التعنت في مفهوم الآخر منحسرًا في حدود تعدد الأديان وتنوعها، بل يتحدى هذه الحدود لينقل إلى داخل حدود الدين الواحد، بل وإلى داخل كل مذهب أو فرقة أو طائفة تتبع الدين نفسه، بل وإلى داخل كل جماعة من جماعات تتبع المذهب نفسه. وهنا نذكر نموذجًا جديرًا بالاعتبار طرحه الإمام الخميني رحمة الله عليه في تفسيره لسورة الحمد، هذا النموذج يوضح لنا كيف يمكن أن يؤدي اتباع أحد علماء الدين لاتجاه فلسفي أو عرفاني لأن يقوم البعض في حوزة قم العلمية بتكفير هذا العالم:

«عندما جئنا إلى قم، كان المرحوم أغا ميرزا على أكبر حكيم، الذى توفى سنة ١٣٤٤هـ عليه رحمة الله، موجوداً فى قم. ولمّا تأسست حوزة قم العلمية، قال أحد علماء الدين ـ عليه رحمة الله هو الآخر ـ: «انظروا إلى أى درجة وصل الإسلام، فقد انفتح أمامه باب بيت أغا ميرزا على أكبر». كان العلماء يتوافدون على بيته لتلقى الدرس على يديه، وكان من بينهم المرحوم السيد خوانسارى (آية الله خوانسارى) والمرحوم السيد إشراقى (ميرزا محمد إشراقى)، وبرغم أن هذا العالم الذى قال هذه العبارة كان رجلاً صالحًا وعلى درجة كبيرة من الصلاح، فإنه حتى بعد وفاة أغا ميرزا على أكبر ظل يقولها، ولقد رأيته بنفسى يقولها وهو فوق المنبر وكأنها قرآن يتلى!»[٣٧].

هذا يعنى أن هذه النظرة إلى «الآخر» قد وصلت حتى إلى نخاع الحوزة العلمية فى قم.

وكأن هذا «الآخر» هو دائمًا «آخر» ولكن فى مستويات مختلفة، ففى المستوى الأول يكون هذا «الآخر» هو كل شخص مشرك أو ملحد، وفى المستوى الثانى يكون الآخر كل من هو غير مسلم مهما كان الدين الذى يتبعه ومهما كان موحدًا، وفى المستوى الثالث يصبح «الآخر» أى آخر غيرنا حتى وإن كان مسلمًا لا يلتزم بمفهومنا ومذهبنا واتجاهنا؛ الشيعة المتشددون ينظرون لأهل السنة على أنهم «آخر» والسنة المتشددون يرون الشيعة «آخر». وفى المرحلة الرابعة يمكن أن يكون هذا «الآخر» من «مذهبنا» نفسه، يؤمن بالمذهب نفسه الذى نؤمن به، لكنه يسير فى اتجاه آخر أو تيار مغاير لا نقبله نحن. فالشيعة الإسماعيلية مثلاً أو الزيدية أو العلوية أو غيرها من الفرق الشيعية، من الممكن أن يكون لهم الاتجاه المذهبى نفسه للشيعة الاثنى عشرية إلا أن الطابع الفكرى أو الفلسفى أو العرفانى الذى يطبعون به هذا المذهب يضعهم لدينا فى موضع «الآخر» وموقعه. تمامًا مثل المثال الذى أشار إليه الإمام الخمينى فى تفسيره لسورة الحمد. ومن المؤكد أن ثمة محاولات وجهود تبذل بشكل مستمر لتعميق هذا المفهوم «للآخر» فيما بين المسلمين أنفسهم.

الحقيقة أن أفول الفكر لدى المسلمين وانحطاط ثقافتهم وتوقف حضارتهم عن العطاء وعزلتها فى النهاية، قد بدأ منذ اليوم الذى بدأ فيه تعميقهم لمفهوم «الآخر»،

وتوالت القرون بعده. وكما يقول حافظ الشيرازى: «يتمثل الباطل فى هذا الوهم الذى نجعل منه إكسيرًا للحياة». وهنا نصل إلى النقطة التى يصف عندها «برنارد لويس» صورة المسلمين فى تصنيفه لها بأنها تمثل «الضعف والفقر والجهل». إنه الضعف والفقر والجهل الذى أدى إلى أن يفقد المسلمون دورهم القيادى، وينحطّ دورهم ويتوقف عند حدود التبعية والإذعان للغرب[٣٨].

لا شك فى أن «لويس» قد طرح هذا المضمون مرارًا فى مؤلفاته، كما طرح أيضًا أسبابًا لتحليله هذا جديرة بأن نناقشها. لكننا لا يمكن أبدًا أن ننكر حقيقة أنه عندما يسود النفور ويتغلب التشدد والعصبية والتعصب، فإن الجميع يلوذ بالفرار والهرب. لقد شاهدت بنفسى نموذجًا مؤسفًا للغاية لمثل هذا التصرف والسلوك فى جامعة كابل، الجامعة التى مضى على تأسيسها ما يقرب من سبعين عامًا كانت خلالها الجامعة الرئيسية والمركزية فى أفغانستان، وقد تحولت فى عصر حكومة طالبان إلى مذبح ومأتم للعلم والفكر والمعرفة. والسبب فى هذا واضح تمامًا. فطالبان لم يكونوا يقبلون أحدًا «آخر» غيرهم. وكما يقول المدير الحالى لجامعة كابل، الدكتور بويل الذى يبدو فى كلامه أثر الحنكة والتجربة والعلم والمعرفة: هناك ١٤ كلية تتبع جامعة كابل، وكانت حكومة طالبان تختار لعمادة كل كلية منها «ملاّ طالبانى». وعندما تعذر وجود ملا لعمادة كلية الزراعة، قاموا بتنصيب إمام مسجد «وزير أكبر خان» وهو من المساجد الشهيرة فى كابل، فى منصب عميد هذه الكلية. يستمر الدكتور بويل فى حديثه ويقول: ذات مرة كان أحد الأساتذة فى كلية الزراعة يلقى محاضرة حول «المبيدات الحشرية الزراعية»، فقاطع هذا العميد كلامه قائلاً: «لدىّ سؤال». فلزم الجميع الصمت. قال: «إذا كان الهواء مليئًا بالسموم ونحن نتنفسه، فما التدبير الوقائى الذى قدره الله تعالى حتى لا نموت من تنفسنا لهذه السموم ودخولها إلى أجسامنا؟».

فقال أحد الأساتذة: ربما تقصد فضيلتكم وجود الميكروبات فى الهواء.. وقال أستاذ آخر: هذا السؤال مهم جدًا ويجب أن نقوم ببحث حوله و.. فقال إمام المسجد «عميد الكلية»: «لا، إن الله تعالى خلق أربعة أشياء للقضاء على هذه السموم حتى نستمر نحن فى الحياة: البق والأبراص والنحل والماء». فلزم الجميع الصمت واجمين. هكذا نجد جامعة كابل الآن مضطرة لكى تدير شئونها الإدارية والعلمية لأن تستخدم أشخاصًا لم يكملوا تعليمهم العالى.

فعندما يتم نفى أى فكر ورأى معارض أو مغاير على أنه «الآخر»، فسوف تكون النتيجة هى نفس نتاج أعمال طالبان فى أفغانستان. وطالما أننا فى العالم الإسلامى لم نعدل تفسيرنا لمفهوم الآخر ونصلحه، فسوف نظل ندور فى هذه الدائرة المغلقة نفسها، ولن يستطيع المسلمون أن يكون لهم الدور الأول فى صناعة الحضارة وصناعة الثقافة. إن الاعتماد على أمثال جلال الدين الرومى وابن سينا والخيام وحافظ لن يحل العقدة فى أمر هذا التراجع والانحطاط. هذا بينما يظل السؤال الذى يطرح نفسه هو: لماذا استطاع المسلمون فى ذلك العصر أن يتألقوا إلى هذه الدرجة وأن يكونوا مركزًا لتجمع العلم والمعرفة والقوة والثروة فى زمانهم؟ ولماذا يحدث اليوم عكس ذلك تمامًا؟

إن البحث عن إجابة لمثل هذا السؤال له دور أساسى فى معرفة علاقتنا بالغرب. وأظن أن تلك الضربة النافذة والمهمة والمؤثرة التى وجهها الغزالى فى «تهافت الفلاسفة» تعتبر من بين الأسباب المهمة فى تخلفنا وفى توقف الفكر فى الشرق.

ليس ثمة شك فى أن مدار الحديث هنا ليس على دافع الغزالى أو حتى حماسته فى أعماله ومؤلفاته، وإنما الحديث يدور حول الأثر الاجتماعى والثقافى والسياسى الذى نتج عن هذه الأعمال. لقد أطلق الغزالى للسانه العنان بالتكفير فى حوزة الفكر والتفكير، أطلق لسانه بتكفير ابن سينا والفارابى اللذين كانا لحسن المصادفة ـ أو لسوءها ـ أهم عمودين فى الثقافة والحضارة الإسلامية فى زمن الازدهار والعصر الذهبى للحضارة الإسلامية. فالغزالى فى «تهافت الفلاسفة» يناقش عشرين مسألة من مختلف المسائل الفلسفية. ويطلق لسانه بالتكفير فى ثلاث مسائل، منها:

١ ـ مسألة البعث بالجسد، حيث يعتقد كثير من الفلاسفة أن البعث والحشر لن يكونا بالجسد بل بالروح المجردة التى تنال الثواب والعقاب.

٢ ـ مسألة علم الله تعالى بالكليات والعموميات، وقولهم إن الله تعالى ليس له علم بالجزئيات والتفاصيل.

٣ ـ مسألة الاعتقاد بقدم العالم وأزليته.

فالغزالى يكفّر ابن سينا والفارابى بسبب اعتقادهما بالمسائل الثلاث السابقة.

وقد واجه ابن سينا مثل هذا الكلام حتى فى عصره وفى أثناء حياته حيث أنشد يقول:

طوال الدهر وهناك مثلى ممن هو كافر أيضًا

إذن فلم يكن هناك مسلم واحد طوال الدهر

واستمرارًا لهذا الطريق، نجد مُلاّ صَدرا(*) يلقى به فى كهف العزلة والانزواء فى «كهك»(**) وتحدد إقامته فى بيته هناك.

وتستمر هذه السلسلة حتى نجد الإمام الخمينى يتأذى من أنه رآهم فى الحوزة العلمية فى قم يأنفون حتى من الشرب فى الإناء نفسه الذى كان يشرب منه أحد علماء الدين لأن أباه كان يتحدث فى الفلسفة.

عندما تتعرض ممارسة التفكير واستخدام العقل للتهديد، ويتعلل التفكير والتنظير بعبارات وكلمات مثل لكن وإذا ولو والحيطة، ينتهى عندها عصر التعلم والتفكير والشك المنهجى البناء، وينتفى فى النهاية الإحساس بحلاوة اليقين وحلاوة إدراكه.

إن الإسلام عقيدة تمجد العلم وتقدسه. عقيدة تقسم بالقلم، تقدس قيمة العلماء بصرف النظر عن أسس عقائدهم وتعترف لأهل العلم بدرجات عليا، عقيدة وصفت كما فى كتاب «أصول الكافى» للكلينى ـ على سبيل المثال ـ بأن أول مبحث فيها هو مبحث العقل، و... هذه العقيدة عندما تتحول إلى عقيدة الصمت والسكوت والاحتياط والخرافة، يصبح صنع الحضارة، أو حتى المشاركة فى صنعها فى مثل هذه الأجواء أمرًا مستحيلاً.

الجدير بالتأمل هنا هو أنه يمكن اعتبار «تهافت الفلاسفة» الذى ألفه الغزالى نتاجًا للمدارس النظامية، تلك المؤسسة العلمية، السياسية، الإعلامية، التى كان الخواجة نظام الملك الطوسى قد أسسها. إن الخواجة نظام الملك لم يكن يقبل من المفكر والمنظر والفيلسوف سوى التبعية، ولا يريد منه سوى الطاعة، ومن هنا نجده فى كتابه «سياست

(*) مُلاّ صَدْرا، صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى، الفيلسوف الإيرانى الكبير، ولد فى شيراز فى أواخر القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، وتوفى بالبصرة سنة ١٠٥٠ هـ ـ ١٦٤٠م.

(**) كهك: قرية جبلية بالقرب من «قُم».

نامه» يطرح فكرة «السلطان المطلق أو الحاكم المطلق»، حيث يشيد بعصره وزمانه ويمجده فى نهاية الفصل الأول من كتابه هذا؛ لأن:

«بحمد الله تعالى ليس ثمة أحد فى كل الدنيا يفكر فى المعارضة أو فى إخراج رأسه من ربقة الطاعة ـ أدام الله تعالى هذه الدولة حتى قيام الساعة، وأبعد عين السوء عن كمال هذه المملكة، حتى يعيش الخلق فى كنف عدالة هذا السلطان، وينشغلوا بالدعاء له بالخير».

والمثير للعجب هنا أنه يحسب أن وعى السلطان وعلمه ومعرفته نابع من ذاته وأنه ليس فى حاجة أبدًا إلى مشورة الآخرين أوالاستماع إلى وجهات نظرهم وآرائهم:

«علمه كالشمعة التى تُضاء منها أنوار كثيرة، يهتدى بها الناس ويستنيرون فى طريقهم ليخرجوا من الظلمات، وليس به حاجة لأى مشير أو مرشد»[٣٩].

وفى النهاية يلخص لنا خواجة نظام الملك نظريته ومعتقده ومنهجه فى تنظيم الحكومة وكذلك فى إنشائه المدارس النظامية، فى هذه العبارة:

«. . . . حقّا يجب الاعتراف بأن المُلك والرعية جميعًا هم للسلطان»[٤٠]. هذا التفكير نفسه كأنه هو الذى أخذ يتبدل ويتحول بعد نظام الملك والغزالى حتى أصبح ثقافة عامة فى عصر سعدى الشيرازى، حيث وجدنا سعدى ينشد موجهًا خطابه إلى سلطان عصره:

لو أنك ألصقت كل العيوب بى

فكل عيب يراه السلطان فضل

ويقول أيضًا:

القول برأى يخالف رأى السلطان

ليس إلا غسل ليدك بدمك

فإذا قال السلطان عن الليل هذا نهار

يجب أن نقول: نعم، ها هو القمر والنجم طالع فيه

فبدلاً من تقديس العلم والمعرفة الذى يثمر صنع الحضارة والثقافة، أصبح ثمة تقديس للسلطة والقوة والثروة الذى لا ينتج عنه سوى التخلف.

وما يثير الاعتبار هنا هو أن كل تلك التيارات التى حاربت الفكر والإبداع فى تاريخنا، تأكد أنها كانت تجد فى السلطة السياسية سنداً لها ومعيناً. مثلما لم يستطع كتاب «تهافت الفلاسفة» أن يجد له مكانة أو يحظى بأى اهتمام دون اهتمام خواجه نظام الملك وعنايته به، وكذلك الجو والمناخ الذى ساد فى مدارسه التى أنشأها. فهذا الكتاب ألفه الغزالى خلال فترة إقامته فى بغداد ورئاسته لنظامية بغداد قبل هجرته الكبرى.

ثمة كتب أخرى أُلِّفت تحت هذا الاسم «تهافت الفلاسفة»، هذه الكتب هاجمت الفلسفة والتفكير واستخدام العقل، وقد حظيت هى الأخرى بكل العناية والاهتمام من قبل السلطان أو السلطة السياسية الحاكمة. مثلما حدث وأن أمر السلطان محمد الفاتح اثنين من العلماء هما علاء الدين الطوسى وخواجه زاده، بتأليف كتاب للرد على الفلاسفة ونقض الفلسفة. وقام كلاهما بتأليف «تهافت الفلاسفة» ولقيا على ذلك تقديراً كبيراً من قبل السلطان محمد الفاتح[٤١].

فعندما يتأكد «الآخر» من أن «استخدام العقل» لا يفتح أى طريق أمام طموح الإنسان وتقدمه، عندما يقوم السلطان السلجوقى بتقبيل حافر حصان الخليفة، فماذا ينتظر من الآخرين الذين يخضعون لسلطة هذا السلطان السلجوقى سوى أن يسلكوا معه مثل هذا السلوك وينتهجوا تجاهه مثل هذا المنهج، وإلا فسوف يصبحون «آخر» بالنسبة للسلطان وكل من يتبعه. تماماً مثلما حدث لنظامى الكنجوى الذى ظل قابعاً فى بيته معتزلاً فيه ولم يخرج منه طوال ثلاثين عاماً. ومثلما حدث لملا صدرا الذى اعتزل فى كهك، ومثلما حدث لفيض الكاشانى[*] الذى اعتزل فى «قمصر» وكما يقول ملا صدرا اعتزلوا عن فوضى الدنيا وغوغائيتها.

ـ شبعت روحى من غوغاء الدنيا

(*) فيض الكاشانى، الحكيم العارف والشاعر المعروف فى العصر الصفوى، درس فى شيراز على المُلاّ صدرا، توفى سنة ١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م.

فـلا أعلـق قلبـي بأي شـيء فيهـا
ـ ما أكثر ما رأيت مكاره من زماني
وما أكثر ما سمعته من أهل السوء[٤٢].

إن مُلا صدرا يصور بصراحة في مقدمة أسفاره تلك الأوضاع التي كانت سائدة في عصره، ففي هذه المقدمة يحكي كيف كان ذلك العصر يقف ضد الفكر والحكمة وكيف كان عصرًا لرواج الخرافة وتفشي الجهل ومحاربة العلماء والحكماء.

فهذا العصر الذي كان يرى أن التفكير والتدبر والتعمق في الأمور الربانية، والآيات الإلهية ما هو إلا بدعة، نشرت فيه رايات الجهل والجهالة والجمود، وأبيد العلم والفضل. ووضع في الصدارة كل من كان يسبح في بحر الجهل والجهالة والبلاهة بعيدًا عن نور العقل، حيث كان يجد الحظوة لدى أرباب العصر وسادته وحكامه، ويُعَدُّ لديهم الأعلم والأتقى.

«لما رأيت هذا العصر يمحي فيه العلم وأسراره، ويلقي على حقيقته ونوره غطاء الجهل، اخترت العزلة والانزواء. ففي هذا الزمن يلقى الجاهل سيئ الفعال كل حفاوة وتقدير. بينما يتعرض العلماء والمبرزون للسحق»[٤٣]. ثم يشير ملا صدرا إلى اقتباس من الخطبة الشقشقية للإمام علي بن أبي طالب ويقول: «في هذا الزمن الذي يشيب لهوله الولدان و . . . .».

لو شئنا أن نعرف السبب في توقف المسلمين عن صنع الحضارة وصنع الثقافة والسبب في تقلص علاقتهم بالعلم، والسبب في كون المسلمين في العالم المعاصر مجرد مستهلكين لمنجزات الغرب في المجالات الثلاثة، العلم والتنظير والتكنولوچيا، فإن أهم سبب في كل هذا يتمثل في توقف الفكر ومحاربته. ومع مثل هذا الوضع يصبح من البديهي ألا نستطيع أن نتحدث إلى الغرب أو نتحاور معه من موقف الند.

خلال عصر ازدهار الحضارة الإسلامية، كان العلماء يفدون إلى حواضر المسلمين من كل أنحاء العالم في ذلك الوقت؛ من روما والهند، وكان العلماء النصارى واليهود والبوذيون والهندوس والمجوس، يلقون في حواضر العالم الإسلامي كل حفاوة وترحيب؛ حيث كانت الحماسة تملؤهم ويحدوهم الأمل لما يلقونه من ترحيب وتشجيع وتآلف، فبذلوا أقصى جهدهم في نقل مختلف العلوم للمسلمين.

obeikandi.com

فى ذلك الوقت كانت بغداد بمثابة مركز للعلم والتنظير والثروة والرفاهية، بغداد هذه كان يعيش فيها المسلمون والنصارى واليهود والصابئة والسامرة والبوذيون والمجوس والدهريون، ومهما كان توجه كل منهم ومشربه، فقد كان يبحث عن ملجأ وملاذ يبرز فيه علمه وفنه وفضله ويرتقى به ويتقدم فيه.

وكما يقول ابن الأثير فى كتابه «الكامل»: كان العلماء فى أى بقعة من بقاع العالم، يعلقون أنظارهم وآمالهم ببغداد، ويتساءلون دومًا: هل سيتحقق أملهم يومًا ويستطيعون الانضمام إلى قافلة العلم والبحث والفن فى بغداد؟ ويتلقون فيها التقدير لعلمهم والجوائز على أعمالهم، أو يكون لهم فيها دخل ومعاش يوفر لهم حياة كريمة، ويحققون به حياتهم المأمولة وهم يقيمون فى ـ دار السلام ـ بغداد؟

كان الاعتراف الرسمى بالآخر أمر شائع وجائز وعادى. فعلى سبيل المثال وجدنا المأمون العباسى الذى كان شيعى التوجه، يتخذ يحيى بن أكثم سنى المذهب وزيرًا له. وكذلك أحمد بن أبى داود الوزير الثانى للمأمون كان من المعتزلة. وبصرف النظر عن بغداد، فقد شاهدنا فى ذلك العصر مناطق أخرى يعيش فيها المسلمون مثل خراسان الكبرى وبخارى وسمرقند، حيث عاش ابن سينا وأبو الريحان البيرونى، شاهدنا تيارات مختلفة ومتعددة، فكرية ودينية ومذهبية. ومن الطبيعى ألا يظهر فى ذلك العصر أى حديث عن التعددية نظرًا لما يتسم به ذلك العصر من خصائص كان أهمها على الإطلاق حب «الآخر» ومداراته وقبوله. ففى بيت الحكمة، الذى كان يمكن عَدُّه أهم مركز للعلوم والبحوث ونقل مختلف العلوم فى ذلك العصر، لم يكن أحد يسأل عن دين الآخر، ولا يتصدى لإنكار ما يعتقده الآخر. ولهذا كان النصرانى واليهودى والهندوسى والبوذى والمجوسى والمسلم يعيشون بعضهم مع بعض، وكانت تدور بينهم مناقشات ومحاورات علمية وبحثية فى مختلف العلوم والفنون والآداب. ونذكر منهم هنا على سبيل المثال:

(أ) ١ ـ آل بختيشوع، أبناء جرجيوس بن بختيشوع السريانى الذى كان طبيبًا للمنصور العباسى.

٢ ـ آل حنين، أبناء حنين بن إسحاق العبادى «شيخ المترجمين» وكانوا من نصارى الحيرة.

٣ ـ قسطا بن لوقا البعلبكى، وكان من مسيحيى الشام.
٤ ـ آل ماسر جويه اليهودى السريانى.
٥ ـ آل ثابت الحرانى وكانوا من الصابئة.
٦ ـ الحجاج بن مطر.
٧ ـ ابن نائمة الحمصى.
٨ ـ يوحنا بن ماسويه.
٩ ـ إسطفان بن باسيل.
١٠ ـ سرجيس الرأس.
١١ ـ يوحنا بن بختيشوع (وهو غير آل بختيشوع).
١٢ ـ يحيى والبطريق ابنا البطريق.
١٣ ـ أبو عثمان الدمشقى.
١٤ ـ أبو بشر حتى بن يونس.
١٥ ـ يحيى بن عدى.

كل هؤلاء كانوا مترجمين يقومون بترجمة الكتب والمؤلفات فى فروع مختلف العلوم من اليونانية إلى العربية.

(ب) ـ مترجمون آخرون، كانوا يقومون بأعمال الترجمة للكتب والمؤلفات من اللغات الفارسية ـ الوسطى أو الأشتائية ـ إلى العربية، مثل:

١ ـ عبد الله بن المقفع وآل نوبخت وبخاصة الفضل بن بدبخت.

٢ ـ موسى ويوسف ابنا خالد.

٣ ـ أبو الحسن بن زياد التميمى.

٤ ـ أحمد بن يحيى البلاذرى.

(ج) ـ وهناك مترجمون قاموا بترجمة نصوص من اللغة السنسكريتية، كان منهم منكا أوسنكا الهندى، وأيضا دُهن الهندى الذى كان يرأس مستشفى البرامكة.

(د) ـ كذلك كان هناك مترجمون قاموا بالترجمة من اللغة النبطية (الكلدانية) إلى اللغة العربية، ومنهم نبطى بن وحشنه الذى قام بترجمة كتاب «الفلاحة النبطية» ضمن ما ترجمه من كتب[٤٤].

وكمّ الكتب التى تمت ترجمتها فى مختلف العلوم يثبت مدى ما وصل إليه الاهتمام بالعلم، وبخاصة تلك العلوم التطبيقية والعلوم البحتة وكذلك علوم الفلسفة والمنطق. لقد انتقد «برنارد لويس» المسلمين لعدم اهتمامهم فى حركة الترجمة فى ذلك العصر بالمؤلفات والأعمال الأدبية الخالصة مثل الإلياذة والأوديسا، وركز نقده لهم لعدم ترجمتهم لهذه الملحمة بالذات. ولا شك فى أنه يبالغ عندما يقول: «إن المسلمين لم يقوموا بترجمة أى نص أدبى ولا نص تاريخى ولا مسرحية ولا حتى شعر»(٤٥).

وكما كان رأيه هذا مبالغًا فيه كان تحليله لهذا الرأى متحيزًا كذلك ويتسم بالسطحية، فقد كتب يقول: «إنهم ـ أى المسلمين ـ كانوا يبحثون عن العلوم التى تفيدهم كى يأخذوها عن الكفار؛ ولهذا لم يهتموا بنقل المؤلفات النظرية والأدبية ولم يحسوا بحاجتهم إليها».

هذا الرأى الذى طرحه «برنارد لويس» ليس له أساس من الصحة. أولاً، لأن الآداب بمختلف فروعها لم تكن وقفًا على اليونان وحدهم. ولهذا شاهدنا ترجمات كثيرة لنصوص أدبية من اللغات الأخرى كالهندية والفارسية إلى اللغة العربية. وثانيًا، أن المسلمين قاموا بترجمة أفضل الكتب والمؤلفات الفلسفية اليونانية والتى تصادف أنها على أهمية كبيرة من الناحية الأدبية كمؤلفات أفلاطون، فكيف يمكن اعتبار المسلمين على غير اهتمام بما يتعلق بمجال الأدب؟ ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن تلك النظريات والأفكار الفلسفية والعرفانية اليونانية قد انتقلت أساسًا إلى أوروبا والغرب عن طريق اللغة العربية.

أما قضية اهتمام المسلمين فى الدرجة الأولى بالكتب العلمية والمؤلفات الخاصة بالعلوم البحتة مثل الرياضيات والفيزيقا، والكيمياء و... والطب والزراعة وعلم النجوم والفلك، وفى الدرجة الثانية بالكتب والمؤلفات الفلسفية، وفى الدرجة الثالثة بالكتب والمؤلفات الأدبية. فإن هذا الترتيب يثبت بما لايدع مجالاً للشك أن اهتمام المسلمين كان يأتى بناء على احتياجاتهم، وهذا صحيح حقًا لكنه ليس له أدنى علاقة بقضية الكفر والإيمان. فالمسلم هو فى الأساس طالب علم، يبحث عنه طوال حياته ويتلقاه من أى مكان كان، تحت أى ظرف، وعن أى شخص مهما كان.

ويمكننا هنا أن نقول إن المسلمين خلال عصر ازدهار حضارتهم وثقافتهم، وفى أثناء عصرها الذهبى كانوا يتحرون الدقة فيما يتعلق بالتعرف على مختلف المجالات فى الثقافات المتعددة والأخذ عنها.

لقد ذكر أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام» تلك المجالات الثقافية المتعددة التى أخذ عنها المسلمون وهى كما يلى :

١- الثقافة الفارسية .
٢- الثقافة الهندية .
٣- الثقافة اليونانية ـ الرومانية .
٤- الثقافة العربية .
٥- الثقافة الدينية .

فعندما كان مفهوم «الآخر» لا يرسخ فى ذهن المسلمين بمعناه السلبى المرفوض، كان من الطبيعى أن يشاهدوا فى حياتهم وبلدانهم نموّا وتوسعًا فى العلم يزداد يومًا بعد يوم.

ولو شئنا أن نعيش تفوقًا مجددًا للثقافة والحضارة الإسلامية ولثقافة المسلمين وحضارتهم، فلن يكون السبيل إلى ذلك سوى أن نعيش التجربة نفسها التى عاشها المسلمون من قبل، وأهملناها نحن وراء ظهورنا، وهذا هو السبيل نفسه الذى سارت فيه الحضارة الغربية .

أليست مراكز البحوث والجامعات الأوروبية والأمريكية اليوم مراكز للعمل والدراسة، وبذل الجهود العلمية التى تجمع العلماء والباحثين من جميع أنحاء العالم ؟

ألا يمكننا أن نعثر اليوم فى جميع المراكز البحثية والعلمية والدراسية فى أمريكا والغرب على أمثلة لوجود ونشاط علمى وبحثى يقوم به مسلمون وبوذيون وهنود ويابانيون وغيرهم؟ . ثمة مثال جدير بالذكر علىَّ أن أذكره هنا؛ وهو تلك الجلسة التى جرت فى كنيسة «ريفر سايد» بنيويورك لتأبين إدوارد سعيد . فأى مناخ هذا؟ وأى ثقافة تلك التى جذبت إدوارد سعيد واستقطبته هو وآلاف غيره من كبار العلماء والباحثين من مختلف أنحاء العالم، ومنها البلدان الإسلامية، كى يوفر لهم الظروف المناسبة للعمل والبحث والدراسة فى شتى مجالات العلم؟

إذن فلنقبل تلك المقولة التى تقول : إن العلم هو قلب صناعة الحضارة ومركزها . لا يكفى أن يكون تعاملنا مع العلم مجرد وصف له، ومجرد الحديث عنه فى دنيا

المجاملات والألفاظ. فإنتاج العلم والتنظير له شيء ووصفه فقط شيء آخر. لماذا قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ فى باب الحكمة الذى ورد فى نهج البلاغة: «خذ الحكمة ولو من أهل النفاق». لماذا أوصى المسلمون بطلب العلم ولو فى الصين؟لماذا طلب منهم أن يقضوا عمرهم كله فى طلب العلم وأن يتعلموا من المهد إلى اللحد؟ لماذا قيل إن طلب العلم ليس مشروطًا بظروف خاصة أو منوطًا بها، بل يجب طلبه وتعلمه ومزاولته فى جميع الظروف، وحتى فى مواضع الخطر والمخاطرة «ولو بسفك المهج وخوض اللجج»؟

هذه الوصايا التى تتلخص فى: وجوب التعلم فى أى زمان ومن أى شخص كان وفى أى مكان وتحت أى ظرف، سوف تتحقق عندما لا يوصم «الآخر» بمثل هذا المفهوم التكفيرى المتعنت الذى يحصر المسلمين فى عزلة معارفهم الخاصة ويجعلهم منغلقين على ذواتهم.

لقد كتبت جريدة «وول إستريت جورنال» الشهيرة، توضيحًا مثيرًا للعبرة فى وصفها لكتاب برنارد لويس -(What Went Wrong)- وهو التوضيح نفسه الذى ذُكر فى ظهر الكتاب عند طبعه:

«لقد حقق الإسلام طوال قرون أعظم الحريات وأكثرها توسعًا، حقق التنوير، والإبداع والحضارة العظيمة؛ ثم تغير كل شيء، وأحرز الغرب نصرًا وراء آخر. كان أول هذه الانتصارات فى مجال المعارك والحروب، وتحقق ثانى هذه الانتصارات فى مجال إنتاج السلع وتسويقها. ثم شملت هذه الانتصارات جميع مجالات الحياة الخاصة ومجالات الحياة الاجتماعية والحياة العامة».

فلماذا حدث هذا؟ لماذا أصبحنا نحن المسلمين مجرد مستهلكين فى مجال العلم والمعرفة والعلوم الإنسانية والتكنولوچيا والتقنية؟ لماذا أصبح الآخرون هم الذين يقررون للمسلمين مصيرهم، ويتخذون عنهم قراراتهم؟ مثلما يقولون إنهم يريدون أن يجعلوا من العراق نموذجًا للديمقراطية لدول المنطقة والمسلمين جميعًا؟

إن جانبًا من الإجابة عن الأسئلة السابقة يتلخص فى أننا نحن المسلمين طالما سنظل نعانى من هذا التخلف فى إنتاج العلم فى جميع مجالات الحياة، وطالما سيضطر

العلماء وأهل الرأى فى الدول الإسلامية لأسباب واضحة إلى هجرة أوطانهم، وأحيانًا التخلى عن جنسياتهم بكل أسف، وطالما أنهم سيظلون فى أوطانهم وبلادهم بمثابة «الآخر» المرفوض؛ فإن الأوضاع ستظل على حالها هذا نفسه. كان المسلمون صانعى حضارة وقت أن كان اليهودى والمسيحى والبوذى لا يعد بمثابة «الآخر» المرفوض، وقت أن كان الشريف الرضىّ وهو عالم مسلم فذّ ينشد شعرًا فى مدح أبى إسحق الصابئ. هذا المناخ كان مناخ علم وثقافة وتقدم ورقى وارتقاء، وعلى العكس منه نجد العصر الحالى الذى يعيشه المسلمون فى زماننا هذا. ثمة جزء من أراضى المسلمين تم احتلاله احتلالاً مباشرًا فعليًا، وجزء آخر يخضع تمامًا للغرب وكأنه قواعد عسكرية وسياسية يديرها الغرب بنفوذه، وجزء آخر يحترق بنيران الفقر والجهل والتخلف، وجزء ينتظر كل عام تلك المساعدات والمعونات المالية التى تأتيه من أمريكا لإدارة شئونه، وغير ذلك كثير.

يروى أن المرحوم السيد شرف الدين عالمى قام بإنشاء مدرسة فى لبنان على غرار معهد التعليم الفنى الذى أسسه الإمام موسى الصدر، وعند افتتاح هذه المدرسة قال السيد شرف الدين: إن طريق انتصارنا وتفوقنا يمر بمثل هذه المدرسة: «لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشرت الضلالة». وللأسف بدلاً من نشر العلم والمعرفة وإنشاء المدارس والجامعات وتشجيعها، نجد التعصب والغضب هو الوسيلة المثلى لدينا لحل القضايا والمشكلات. ومن الطبيعى أن يكون حاصل عملنا هو نفس ما نواجهه اليوم فى العالم الإسلامى. فالأمم والدول التى أفسحت المجال لنموّ «العلم والفكر والتفكير» هى التى استطاعت بالفعل أن تخرج من حلقة التخلف وتتحرر من أسر الركود.

تمثل إسرائيل كدولة الآن فى حقيقة الأمر رأس حربة فى الهجوم على الإسلام والمسلمين ومحاربتهم، كما أنها تحاول على النطاق العالمى أن تخلق الأزمات فى كثير من المواقع. عندما كان راجيف غاندى يقوم بزيارة لإيران فى أثناء احتلال العراق للكويت فى سنة ١٩٩٠م، صرح قائلاً: إن الصهاينة هم الذين يقفون وراء تعميق هوة الخلافات العرقية والدينية والمذهبية فيما بين المسلمين والهندوس فى الهند، فبعض علماء اللغة والمؤرخين الصهاينة يبحثون مثلاً فى تاريخ المسجد البابرى فى الهند ويثبتون

أصوله كمعبد هندوسى حُوِّل إلى مسجد، ويهدفون بذلك إلى إثارة الهندوس ضد المسلمين و . . . . .

يكفى أن نتتبع مجموعة من المقالات البحثية والكتب والندوات التى تصدرها مؤسسة موشى ديان التابعة لجامعة تل أبيب، حتى ندرك كيف يتناولون هم بحوثهم، وما هو حالنا نحن فى المقابل وما الذى يستهوينا .

بعد انتصار الثورة الإسلامية فى إيران كان يُنتظر :

١- أن تُتاح الفرصة والإمكانية فى بلادنا لكى تكون مفتوحة أمام جميع العلماء المسلمين وغير المسلمين ممن لا يرغبون فى الاستمرار فى العيش فى أوطانهم وبلدانهم لأى سبب كان، ويرغبون فى الهجرة .

٢- أن تقوم إيران بالتوسع بشكل كبير فى قبول أكبر عدد من طلاب الدول الإسلامية للدراسة فيها .

٣- أن تكون إيران مركزًا لنشر مختلف أنواع الكتب والمؤلفات فى مجالات العلوم والمعارف والثقافات المختلفة .

عندما كنت أقوم أخيرًا بزيارة لجامعة كابل، ووسط جو يتعطش فيه الطلاب لتلقى العلم، لاحظت أن ألمانيا هى الدولة الوحيدة التى لها وجود منظم وواضح فى هذه الجامعة. فالشباب الألمان الذين قدموا لأفغانستان لتدريب الطلاب الأفغان وأعضاء هيئة التدريس فى الجامعة على أنظمة الكمبيوتر والإنترنت، قاموا بتأسيس مركز للأبحاث . قصدى هنا هو التساؤل : لماذا لم يكن لنا نحن كإيران وشعبها وشبابها أى وجود فى أفغانستان ومؤسساتها العلمية مثل هؤلاء الألمان؟ هذا وحده فقط مجرد مثال أو نموذج .

والخلاصة فى عبارة واحدة؛ علينا أن نصلح نظرتنا «للآخر» . أما الموضوع الثانى الذى يحظى بأهمية كبيرة للغاية فهو طريقة نظرتنا للحياة . قبل سنوات طويلة، وخلال العقود الأولى من القرن العشرين، قام أحد الرحالة الأوروبيين بزيارة لإيران، وقد كتب فى رحلته فصلاً عن زيارته لمدينة مشهد؛ وفى مشهد يتعرف هذا الرحالة على إحدى الأسر الإيرانية، وتقوم هذه الأسرة باستضافته، وفى منزلها يجذب انتباهه طفلة

ذات خمس أو ست سنوات . يؤثر فيه ذكاؤها وفصاحتها وجمالها . يسألها كم عمرك؟ فتقول : تقريبًا ست سنوات . وترد أمها : عمرها ست سنوات بالتمام والكمال، فاليوم يوافق يوم ميلادها .

وفى عصر اليوم نفسه يذهب الرحالة برفقة والد الطفلة إلى أحد المراسم، وعندما يسأل عن المناسبة يقال له : إنها مراسم لإحياء الذكرى السنوية لشخص توفى قبل ست سنوات .

ويمر هذا الرحالة ذات مرة أمام فندق أو خان تحت الإنشاء، ويرى البنَّاء وهو يقوم بالعمل، حيث ينضد الآجُرّ ويصفّه بعضه فوق بعض بكل دقة ومهارة جديرة بالاستحسان والمشاهدة، إلا أن أحدًا من المارة والعابرين لا ينتبه أبدًا لما يفعله هذا البنّاء، ولا يلتفت إليه أصلاً . وفى ناحية أخرى من المدينة يشاهد هذا الرحالة عمالاً وقد أقدموا على هدم أحد المبانى، وإذا بعدد غفير من الناس قد تجمعوا وأخذوا يشاهدون ما يحدث حتى تم هدم المبنى تمامًا! ويصدر هذا الرحالة رأيه ورؤيته على الحالتين ويقول مصدرًا حكمه بناء عليهما :

إن الإيرانيين يحتفون بمراسم الموت أكثر من احتفالهم بالميلاد، وبالتخريب والهدم أكثر من البناء والتعمير .

من الممكن أن يكون فى هذا الحكم وهذه الرؤية قدر كبير من المبالغة، لكن الأمر لا يتعلق بإيران والإيرانيين فقط، بل يمكننا أن نصنف هذه الظاهرة على أنها من أهم أسباب تخلف المسلمين والشرقيين فى صنع الحضارة والثقافة فى عصرنا الحالى . وثمة مثال آخر على هذه الظاهرة أو هذا التوجه، وهو جدير بالذكر لأنه لا يمكن أن يُنسى، وهذا المثال تمثل فى القانون أو القرار الذى أصدره أعضاء مجلس الشورى الإسلامى الإيرانى بإلغاء العطلة الرسمية فى ذكرى ميلاد الإمام الرضا ﷺ ، وإعلان يوم استشهاده عطلة رسمية بدلاً منها . هذا القانون لم يكن مجرد قانون بسيط يصدره مجلس الشورى، وهو ليس كذلك بالفعل، بل كان علامة فارقة ميزت أسلوب الرؤية ومنهج التفكير . من البديهى أن الحديث لا يدور هنا حول قيمة الاستشهاد، بل يدور حول أسلوب الرؤية ومنهج التفكير الذى بات موضعًا للاهتمام . .

هذه الظاهرة حدثت أيضًا لدى الغربيين، لكنها سارت على عكس الاتجاه الذى سارت فيه عندنا، فالغربيون كانوا فى أوقات الشدائد وعند حلول الأزمات يبادرون بطرح أمور غيبية لا طائل من ورائها، أمور تتسم بالخرافة والجهل. يحكى أنه عندما كان دوى أصوات مدافع السلطان محمد الفاتح يزلزل مدينة قسطنطين بول -وهى التى سميت إسلامبول بعد ذلك وصار اسمها الآن اسطانبول -كان طلاب اللاهوت المسيحى منغمسين وغارقين فى مناقشة مسألة أن الملائكة بسبب لطافة أجسامهم ورقتها يمكن لعدد كبير منهم أن يجلسوا معًا فوق سن إبرة.

بعدها بات الغرب يخط لنفسه مصيرًا جديدًا بحركة النهضة والثورة الصناعية معتمدًا فى ذلك على العلم والمعرفة والتجريب، بعد أن تخلص من الخرافة والتعصب المقيت. من البديهى أن السند الأول للقوة، بل وحتى يمكن أن يقال السند الحصرى لها يتمثل فى العلم والمعرفة؛ إنه العلم والمعرفة الذى يتحول إلى قوة فى مختلف المجالات، العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فالمعرفة بإمكانها أن تخلق هوية جديدة للإنسان.

أما الغفلة والجهالة فهى كذلك تخلق الهوية، لكنها مغايرة، وهى الهوية التى لا يمكن أن تتحقق إلا بإبعاد «الآخر» ونفيه. إنها الهوية التى توصل الإنسان إلى الاعتقاد والإيمان بأنه هو وحده، ووحده فقط على الحق، أما الآخرون فهم جميعًا على الباطل وفى ضلال مبين. عندما يعيش الإنسان فى عزلة وانزواء وضعف، فإنه يلجأ إلى الغضب والعداء؛ لكى يثبت ذاته. يصبح نظره معلقًا بالموت. يصنع لنفسه «هوية مميتة». مثلما تنبه أمين معلوف بوعى إلى هذا التشتت الذى أصاب هويتنا فى حياتنا المعاصرة فيما يتعلق بعلاقتنا بالثقافات الأخرى:

«فى عصر العولمة، ومع هذه التغييرات المتلاحقة والتطورات السريعة الانتشار والمثيرة للحيرة التى شملتنا جميعًا، يتحتم علينا أن نضع على الفور مفهومًا معاصرًا وإدراكًا جديدًا لمفهوم الهوية. فنحن لا نستطيع أن نعمد إلى أن نجبر ملايين الحيارى من البشر على أن يختاروا بين تأكيد متطرف على هويتنا ونبذ أى هوية أخرى، وبين التوحد مع الآخرين والتلاشى والذوبان فيهم. وإذا لم يتحمس معاصرونا لقبول مختلف

الهويات على تعدداتها، وإذا لم يستطيعوا أن يشعروا بضرورة مواءمة حاجتنا للهوية مع روح متفتحة للتعامل مع مختلف الثقافات الأخرى فسوف يضطرون فى النهاية إلى الاختيار بين نفى أنفسنا أو نفى الآخر »(٤٦) .

لقد حاول غاندى فى مواجهته مع العالم الجديد، وفى علاقته بالآخر أن يسوق لنا مثالاً جديراً بالذكر . حيث قال : «لا أستطيع أن أغلق نافذة بيتى أمام النسيم، لكن علىَّ أن أظل حذراً لئلا تقتلعنى عاصفة» .

فمن ناحية علينا أن نستند إلى جذورنا ونبقى عليها على الدوام، ومن ناحية أخرى لا بد لنا من الفروع والأوراق والثمار، تمامًا كالشجرة الطيبة التى تحدث عنها القرآن الكريم، ولا بد لنا من العيش فى جو متحرر غير منغلق على ذاته .

لقد توقف المسلمون عن صنع الحضارة وإسهاماتهم فيها وأصيب دورهم الحضارى بالركود والزوال منذ أن تغيرت نظرتهم للحياة، حتى إن تراثهم الثقافى والفكرى والأدبى تعرض أيضًا لتفسيرات مشوهة ومنحرفة ومتخلفة بسبب سوء الفهم وضيق الأفق، فالخيام الذى قضى عمره كله فى البحث العلمى حولوه إلى شخصية «بوهيمية» لا يعنيها إلا اغتنام فرص اللذة فى الحياة، شخصية كانت تشطب بخط أسود على كل ما له علاقة بالمستقبل، فأين الخيام من هذه الصورة التى صيغت حوله ؟ وهذا يشبه تمامًا سوء الفهم وضيق الأفق الذى أصيبت به السيدة «أوريانا فالاتشى» تجاه فهمها للخيام. ففى معرض إنكارها للإسلام والحضارة والثقافة الإسلامية، لم تعترف «فالاتشى» للخيام إلا ببعض أبيات من الشعر الجميل(٤٧) . فإذا كان الخيام مجرد شخص «بوهيمى» يبحث عن الملذات الآنية كى يغتنمها، فكيف استطاع أن يخلف لنا كل هذا التراث القيم فى البحث والعلم ؟

لقد أورد صادق هدايت فى مقدمته التى كتبها لرباعيات الخيام عبارة طريفة، هذه العبارة يمكن أن تكون مفتاحًا لفهم أسباب توقفنا عن صنع الحضارة وصنع الثقافة :

«قلما نجد فى العالم بأسره كتابًا مثل كتاب رباعيات الخيام، حظى بمثل هذا المديح والثناء والشهرة العالمية وتعرض فى الوقت نفسه للرفض والنقض والنقد والتحريف والإدانة والبهتان والمحاكمة والتجريح، وعلى الرغم من كل ذلك ظل مجهولاً، ولم يعرف بعد لا هو ولا كاتبه»(٤٨).

إن أعمال التشويه والتحريف والتكفير وأيضًا الجهل وعدم المعرفة، ومن ناحية أخرى الانغلاق على الذات وإغلاق العين عن العالم المحيط، كل هذا قد غير أسلوب المسلمين ونهجهم فى الحياة. ومن الطبيعى أن يكون الاستبعاد الذى يعتمد غالبًا على الجهل ويستمر مستندًا إليه، هو الذى أدى إلى أن تستمر هذه المسيرة الطويلة من التراخى والركود إلى يومنا هذا. ويحضرنى هنا ما قرأته فى تاريخ الدولة القاجارية فى إيران من أن «حاجى سياح» ذهب يومًا للقاء ناصر الدين شاه القاجارى وأوصاه بأن يستخدم فى حكومته وإدارة شئون دولته رجالاً من العلماء الأفاضل وأهل النظر والفكر والرأى. استمع ناصر الدين شاه لما قاله «حاجى سياح»، ورد عليه قائلاً: «إنى أدعوك لتناول الغداء معى غدًا لنتحدث حول هذا الموضوع». ثم نادى مسئول المراسم فى البلاط وقال له: «غدًا سوف يكون حاجى سياح ضيفنا على الغداء، فعليك أن تعد لنا «طبق بلچيكا» على الغداء! وأضاف يشرح لمسئول المراسم: «طبق بلچيكا» هو طعام يصنع من لحم اللسان بعد تقشيره وتقطيعه .... وفى ظهر اليوم التالى كان طعام الغداء قد أعد، وأبلغ مسئول المراسم الشاه قائلاً: «طبق بلچيكا جاهز مع الغداء سيدى». وإذا بالشاه ناصر الدين يقول لحاجى سياح: «أنا أحتاج فعلاً لمثل هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون أن بلچيكا هو اسم إحدى الدول. فإذا استخدمت فى إدارة شئون الدولة رجالا من أهل العلم والمعرفة كما تقول، فإنى لن أستطيع أن أحكم أبدًا». هكذا كان الواقع. أمير كبير(*) قُتل ضحية علمه ومعرفته، بينما كان حاجى ميرزا آغاسى ينعم فى نعيم خرافاته وجهالاته.

فأمير كبير كانت نظرته إلى الحياة بشكل، بينما كانت نظرة حاجى ميرزا آغاسى لها بشكل آخر. ومن البديهى أن يكون التخلف هو النتيجة الطبيعية لتلك النظرة المقلوبة للدين، والتاريخ، والحياة. إنها النظرة نفسها التى ينظر بها لأى ظاهرة جديدة فى الحياة بالريبة والشك، والتى تجعل من كل ظاهرة جديدة بمثابة «تابوه» لا يمكن الاقتراب منه.

عندما نصبت الساعة الرملية التى كان الخليفة العباسى هارون الرشيد قد أهداها إلى

(*) تقى الملقب بأمير كبير هو أحد كبار المصلحين فى العالم الإسلامى فى القرن التاسع عشر الميلادى، تولى منصب الصدر الأعظم فى فترة حكم ناصر الدين شاه القاجارى، وقام بكثير من الإصلاحات الداخلية والخارجية، كان من أهمها إنشاؤه دار الفنون. وقد حرض معارضوه الشاه على عزله ونفيه، وانتهى الأمر بقتله سنة ١٨٥٢ وخلفه فى الصدارة العظمى ميرزا آغاسى.

شارلمان ملك فرنسا، على حائط مبنى وسط باريس، ظل الناس لفترة يدورون ويلفون حول هذه الساعة بكل حيطة وترقب وحذر بحثًا عن الجان الذى حبس فيها . وفى وقت لاحق عندما دخلت منجزات الحضارة الغربية، مثل الراديو والتليفزيون ومكبر الصوت إلى البلدان الإسلامية، كانت تعد من المحرمات .

إن أهم سبب فى تخلف المسلمين اليوم بشكل عام هو ذلك التخلف الشديد فى مجال إنتاج العلم والتقنية، ذلك التخلف الذى ترتب عليه بالضرورة فقدانهم لأى قدرة على المواجهة المتوازنة . فها هو ذا نتانياهو يهدد جميع الدول الإسلامية فى صراحة ووضوح بأن إسرائيل بما لديها من قوة مهيبة تستطيع أن تقضى تمامًا على قوتهم العسكرية، وكذلك على قوتهم الاقتصادية . ويعقب تهديده هذا بقوله : «إن أى إنسان عاقل سواء كان عربيًا أو يهوديًا لن يرضى أبدًا بمثل هذا المصير» . وبعد هذه اللهجة التى تتسم بالاستهانة والاستخفاف يقول :

«يستطيع المهندسون الإسرائيليون أن يقدموا مساعداتهم لسورية فى إنشاء خطوط أنابيب لتوصيل المياه إلى مناطق الجفاف وتلك التى تعانى من قلة المياه . السياح العرب بإمكانهم كذلك أن يأتوا إلى إسرائيل للاستفادة من الخدمات الطبية المتقدمة لديها . كما تستطيع الدول العربية أن تستخدم موانى إسرائيل . إسرائيل يمكنها أن تكون مركزًا لتجارة المنطقة واقتصادها و . . . .»(٤٩) .

وفى أيامنا هذه نستطيع أن نرصد بوضوح تلك الحساسية الغربية والقلق البالغ الذى أصاب أمريكا وإنجلترا وإسرائيل وغيرهم إزاء قدرة إيران على الوصول إلى تكنولوچيا الطاقة النووية . إن أهم سبب يكمن وراء هذه الحساسية وهذا القلق البالغ يتمثل فى أن مثل هذه القدرة يمكن أن تكون مقدمة للوصول إلى قدرات أخرى متنوعة فى مجال العلوم الحديثة . ولهذا يعلنون صراحة معارضتهم لمبدأ تطوير التكنولوچيا النووية فى إيران، ويقولونها بوضوح وصراحة : إن إيران لا يجب أن تتحرك فى مثل هذا المسار من أصله !

فعندما يتعلق الأمر بالمسلمين والدول الإسلامية، وبخاصة تلك التى لا تخضع لسيطرة الغرب وإرادته، تثار مثل هذه الحساسيات والقلق . أما إذا تعلق الأمر بدولة تضع إرادتها فى إطار إرادة الغرب ومصالحه فإن الوضع يختلف تمامًا . وإذا كانت هذه

الدولة هى دولة إسرائيل فإن أمريكا وإنجلترا تصفقان تشجيعًا لقوتها فى التكنولوچيا النووية والسلاح الذرى .

ولا يخلو من غرض أبدًا كون المستشرقين قد ركزوا جهودهم البحثية وأوقفوها على مجالات الآداب والفنون وعلم اللغة دون التركيز على الشخصيات العلمية والتقنية . لقد قاموا بالتعريف بالشخصيات العلمية فى عالم الإسلام ضمن نطاق حضارتهم الغربية فقط ، قاموا بترجمة مؤلفات هذه الشخصيات والعلماء ونقلوا أعمالهم إلى اللاتينية واللغات الأوروبية الأخرى ، أما عندما أرادوا تعريف الشرق للشرقيين كان أهم جانب بحثوا فيه ودرسوه وتعمقوا فيه هو التصوف والعرفان ، ذلك التصوف والعرفان الذى يدعو إلى نوع من البطالة والتواكل والخمول والدعة ، ويعتبر «باب الاختيار» و«باب الاجتهاد» مغلقًا تمامًا ، ويرضى بما هو موجود وكائن ، وليس ذلك التصوف الذى يحض على امتلاك إرادة صلبة ويدعو إلى تدوير عجلة الحياة .

إننا نجد الدكتور حسن حنفى يطرح نظرية جديرة بالاهتمام . يقول : إن عملاً واحدًا صحيحًا يتم على أساس نظرية خاطئة لهو أكثر قيمة من نظرية صحيحة لا تؤدى إلى عمل ، كما أن عملاً واحدًا خاطئًا يتم بناء على نظرية صحيحة لهو أفضل بكثير من نظرية صحيحة بدون عمل» . ويشير إلى جملة قصيرة تقول : «فى البدء كان العمل»(٥٠) .

إن أهم عمل علينا أن نقوم به نحن المسلمين هو أن تتكون لدينا نظرة صحيحة وسليمة عن الحياة ، وأن تكون لنا علاقة عاقلة وعادلة مع «الآخر» . وهاتان القضيتان ترتبطان بعضهما ببعض تمام الارتباط . فالإنسان كائن لا يستطيع أبدًا أن يكون مثل «روبنسون كروزو» فى رواية دانيال ديفو الشهيرة ، ويعيش فى عزلته وتوحده مع نفسه . وخصوصًا فى هذا العالم الذى رفعت فيه تقريبًا جميع الحواجز وألغيت جميع الأسوار . بعبارة أخرى يمكن القول إن درجة علاقتنا مع الآخرين ومدى توسع هذه العلاقة وانتشارها هو الذى يحدد موقفنا اليوم ويوضح وضعنا . «أنا أملك القدرة على التواصل مع الآخرين ، إذن فأنا موجود» .

إنها ليست تلك العلاقة الآلية الروتينية النمطية كتلك التى تربط بين النمل فى

مستعمرته أو النحل فى خلاياه، والتى لا تحدث أى تغيير فى نمط حياته، بل العلاقة التى يمكنها أن تحدث أثرًا إيجابيًا فى تغيير حياة الإنسان .

يجب أن نتعلم من الآخرين كل شىء، بدءًا من أبسط نماذج الحياة اليومية ونواحيها حتى إدارة المصانع الكبرى العملاقة، حتى إنتاج الثقافة وغير ذلك من مختلف نواحى الحياة الإنسانية . ويحضرنى هنا نموذج بسيط إلى حد ما لكنى أعتقد أنه على قدر كبير من الأهمية، فنحن كما نعلم أن سائقى سيارات الأجرة فى مدينة مثل نيويورك، تتنوع القوميات والأعراق والدول التى ينتمون إليها إلى أكثر من ست وثمانين قومية ودولة مختلفة . وعلى الرغم من ذلك تجد العناصر الثلاثة فى عملية ركوب السيارة الأجرة وهم السائق والراكب والسيارة، قد تم تحديد دور كل منهم وتعريفه بدقة . فركوب الراكب محدد . ودقائق انتظار السيارة فى زحمة المرور أو أمام الضوء الأحمر لإشارة المرور محددة، والوقت الذى تعمل السيارة فى أثنائه محدد أيضًا . وإذا أراد الراكب أن يركب السيارة بعد منتصف الليل، فإنه يدفع أجرة إضافية محددة أيضًا، كذلك إذا أراد السائق أن ينهى عمله ويذهب إلى بيته ولم يسمح له الراكب بذلك، توجب على الراكب أن يدفع أجرة إضافية محددة أيضًا، كما أن المصباح الذى يضعه السائق فوق سيارته يجب أن يشير إلى ما إذا كان فى وقت الراحة أم فى وقت العمل . بعبارة أخرى، فإن أى سبيل لحدوث أى نوع من التلاعب أو المساومة فى الأجرة أو إضاعة الوقت بين الراكب والسائق قد تم سد كل ذريعة إليه . لأن جميع عناصر هذه العلاقة قد تم تحديد دور كل منها وتعريف ماهيته وهويته وتحديد ما له من حقوق وما عليه من واجبات . وهذا المثال ما هو إلا مثال بسيط فى أحد الأمور الاجتماعية البسيطة .

***

الهوامش:

١ ـ قرآن مجيد، سورة سبأ، ٢٤ : ٢٦، ترجمة آيتى، تهران، انتشارات سروش، ١٣٧٤ هـ. ش.

والمستلفت للنظر فى ترجمة الآية ٢٥ وهى التى وردت فيها عبارة: ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]. قد ترجم معناها إلى «وإذا أنتم ارتكبتم عملاً قبيحًا، فلن نسأل نحن عنه». فقد أضاف المترجم كلمة «قبيح» من عنده، قطعًا لكى يعادل بها كلمة «جرم» التى وردت فى الجزء الأول من الآية، وهذا بالقطع غير مقبول، لأن التنزيل لم يذكر كلمة جرم فى الجزء الثانى من الآية لكى يضفى على الآية لطفًا وبلاغة خاصة ويمهد المجال لحوار نفسى عاطفى حنون.

وفى الترجمة التى قام بها بهاء الدين خرمشاهى لمعانى القرآن الكريم، ترجمت هذه الآية بدقة أكثر: «قل لن تسألوا عما ارتكبناه من جرم ولا نسأل عما تفعلون». أما فى الترجمة الفارسية لمعانى القرآن الكريم طبعة مجمع الملك فهد للمصحف الشريف بالسعودية فقد وردت ترجمة هذه الآية: «قل لن تسألوا أنتم عن ذنوبنا ولن نسأل نحن عما تفعلون».

وفى الترجمة التى قام بها محمد كاظم معزى ترجمت هذه الآية فى اتجاه آخر: «قل لن تسألوا عما فعلنا ولن نسأل عما تفعلون». وكأن المترجم المحترم قد ترجم ﴿أَجْرَمْنَا﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ بمعنى واحد تمامًا وأذهب بذلك بالقطع بلاغة الآية ولطافتها ضحية لذوقه وسليقته. كذلك نجد السيدة الفاضلة الدكتورة طاهرة صفار زاده فى الترجمة الفارسية والإنجليزية لمعانى القرآن الكريم تنسب الجرم ـ الذنب ـ لكلا الطرفين: «قل يوم القيامة لستم بمسئولين عن ذنوبنا ونحن أيضًا لن نكون مسئولين عن ذنبوكم».

٢ ـ الطبرى، تفسير جامع البيان عن تأويل آى القرآن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٥هـ، ج٦، ص ٢٢٢.

٣ ـ الزمخشرى، الكشاف، بيروت، دار المعرفة، ت، ج ١٦، ٣٧٤، و ٣٧٥.

٤ ـ الإمام الفخر الرازى، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٥هـ. ج ٢٥، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

٥ ـ علامه طباطبائی، المیزان، قم، انتشارات جامعه مدرسین، بی تا، ج ١٦، ص ٢٧٤، ٣٧٥.

6- Routledge Encyclopedia of Philosophy, London, 1998, Vol: 5 P: 9-10.

٧ ـ المیزان، ج ١٣. ص ١١٧، ١١٨.

٨ ـ محمد حسین، فضل الله، گفت وگو وتفاهم در قرآن کریم، ترجمة سید حسن میردامادی تهران، هرمس، مرکزبین المللی گفت وگوی تمدنها، ١٣٨٠، ص ٣٤.

٩ ـ ورد فی القرآن الکریم ذکر المسیحیین والیهود والمجوس علی أنهم «أهل الکتاب»، ثلاثین مرة؛ علی سبیل المثال: البقرة: ١٠٥ و١٠٩، آل عمران: ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٥، ٩٨، ٩٩و ١١٠، ١١٣ و١٩٩، النساء: ١٢٣ و١٥٩ و١٧١و . . .

کما ذکر المسیحیون مرة واحدة علی أنهم «أهل الإنجیل»، المائدة: ٤٧.

١٠ ـ التفسیر الکبیر، ج ٢٥، ص ٧٦.

١١ ـ المیزان، ج ١٦، ص ١٣٧، ١٣٨.

١٢ ـ التفسیر الکبیر، ج ٢٧، ص ١٢٨.

١٣ ـ محمد یوسف الکاندهلوی، حیاة الصحابة، بیروت، دار المعرفة، د. ت، ج١، ص ٣٣٥، والذهبی، تاریخ الإسلام والسیرة النبویة، بیروت، دار الکتاب العربی ١٤١٥هـ، ص ١٩٢، ١٩٣.

١٤ ـ رفیع الدین إسحاق بن محمد همدانی، سیرت رسول الله، به تصحیح دکتر أصغر مهدوی تهران، خوارزمی، ١٣٦١ هـ. ش، ج١، ص ٣٢٠. وراجع السیرة النبویة لابن هشام، تحقیق مصطفی السقا وإبراهیم الإبیاری وعبد الحفیظ شلبی ـ طبع الحلبی بمصر ١٩٥٥. ج١ ص ٣٣٦.

١٥ ـ ابن الأثیر، أسد الغابة، بیروت، دار إحیاء التراث العربی ١٤١٥هـ، ص ١٩٢، ١٩٣.

١٦ ـ ابن الأثیر، الکامل فی التاریخ، بیروت، دار صادر ١٣٩٩هـ، ج ١ص ٨١.

١٧ ـ دائرة المعارف بزرگ إسلامی، زیر نظر کاظم موسوی بجنوردی، تهران، ١٣٧٧ هـ. ش، ج٨، ص ٣٩٥، ٣٩٦.

18- http. //www. amazon. com/exec/obidositg/ detail..

19- http..//www. cbc.ca/programs/sites..

20- Ibid., P. 10.

obeikandl.com

٢١ ـ برتراند راسل، تاريخ فلسفه غرب، ترجمة نجف دريا بندرى، تهران، كتاب پرواز، ١٣٧٣هـ. ش، ص ٦٠٨.

22- Great Books, Dostoevskii Matimer, T, Adler editor in chief (U.S.A -1993) va: 53.

٢٣ ـ إنجيل متى، إصحاح ٨، آية ٢١ ولوقا. إصحاح ٩، آيات ٥٨، ٥٩؛ كما يوجد أيضًا ما يشبه هذا المعنى فى سفر المزامير. مزمور ٨٤، آيات ٣: ٥، «العصفور أيضًا وجد له عشا، كما وجد السنونو عشا له يضع فيه فراخه....».

24- W.J. Leatherbattow.

٢٥ ـ هانرى ترويايا، زندگى ونقد آثار داستايوسكى، ترجمه حسين على هروى، تهران، نيلوفر، ١٣٦٩ هـ. ش، ص ٤٨٠.

Dostoevskii, Cu.K. Cambridge University Press, 2002, P: 148, Dostoevskii and religion.

A. Boyce Gibson, the religion of Dostoevsky. London, Sem press, 1973,

Geir Kjetsaa, Dostoevsky and his new testament, Atlantic Higland, K.N.J. Humanitis Press 1984.

٢٦ ـ فئودور داستايوسكى، دفتر ياد داشتهاى روزانه، ترجمه إبراهيم يونس، تهران، انتشارات بزرگمهر، ١٣٧٠هـ.ش، ج٣، ص ١٤١١.

٢٧ ـ فئودور داستايوسكى، برادران كارامازوف، ترجمه صالح حسين، تهران، انتشارات ناهيد، ١٣٧٦، ج١، ص ٣٣٧.

٢٨ ـ ورد ذكر مواصلة لصيام «أربعين يومًا بلياليها» فى العقيدة اليهودية فيما يتعلق بموسى فى العهد القديم كذلك. انظر: سفر الخروج، إصحاح ٢٤، الآية ١٨، والإصحاح ٣٤، الآية ٢٨: «كان هناك لدى الرب لأربعين يومًا وليلة، لم يأكل خبزًا ولم يشرب ماءً، وكتب كلام الوصايا العشر على الألواح...».

وقد أنشد حافظ:

أيها الصوفى إن الشراب ليصبح صافيًا　　عندما يمر عليه فى زجاجته أربعون بلياليها

٢٩ ـ إنجيل متى ٤: ١ ـ ١١.

٣٠ـ ويل ديورانت، تاريخ تمدن، ترجمه أبو القاسم طاهرى، تهران، سازمان انتشارات آموزش انقلاب إسلامى، ١٣٦٧، ج٤ (بخش دوم) ص ١٠٣٤ و١٠٣٥.

٣١ـ رابرت روزول پالمو، تاريخ جهان نو، ترجمه أبو القاسم طاهرى، تهران، أمير كبير، ١٣٤٩، ج١، ص٤٣: ٤٥.

٣٢ـ مستر هاكس، قاموس كتاب مقدس، تهران، أساطير، ١٣٧٧ هـ. ش، ص ٦٥٢.

٣٣ـ متى ١٦: ١ـ ٧، وانظر أيضًا، لوقا ١٢: ٥٤ـ ٥٦: ٥٦، ١٩: ١٤.

٣٤ـ متى ١٦: ١٢، لوقا ١٢: ١ ومرقص ٨: ١٥؛ ربما أراد المسيح بكلمة خمير معنى الطوية نفسها أو الطبع نفسه. فقد ورد توضيح أكثر لمعنى هذه الكلمة فى «رسالة بولس إلى أهل كورنثى»:

«ألستم تعلمون أن القليل من الخميرة يخمر العجين كله؟ إذن فطهروا أنفسكم من الخميرة العتيقة حتى تصيروا عجينًا جديدًا؛ كأنكم بغير خمير؟ لأن فصحنا أيضًا المسيح قد ذبح لأجلنا. إذن لنعيِّد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والغيث بل بفطير الإخلاص والحق». ففى رسالة بولس إلى أهل كورنثى / ٥/ ٧: ٩، استخدم لفظ الخمير كرمز للفساد والفطير كرمز للصداقة والصدق. انظر: الكتاب المقدس، بيروت، الدار الشرقية، ١٩٩٧م، العهد الجديد»، ص ٥١٦.

٣٥ـ الإمام الشافعى، الرسالة، القاهرة، دار التراث، ١٣٩٩هـ، ١٣.

٣٦ـ عبد الله بن عبد المحسن التركى، أصول مذهب الإمام أحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ. ص ١٧٨: ١٨٥.

٣٧ـ إمام خمينى، تفسير سورة الحمد، مؤسسه تنظيم ونشر آثار إمام خمينى، تهران، ١٣٧٨هـ ..، ص ١٨٩، ١٩٠.

38- Bernard Lewis, What Went Wrong? P: 169.

٣٩ـ خواجه نظام الملك، سياست نامه، به اهتمام هيوبرت دارك، تهران، انتشارات علمى وفرهنگى، ١٣٦٤ هـ. ش. ص ١٤.

٤٠ـ نفسه، ص ٤٣.

٤١ـ غلام حسين إبراهيمى دينانى، ماجراى فكر فلسفى درجهان إسلام، تهران، طرح نو، ١٣٧٩هـ. ش، ج١، ص ٢١٢، ٢١٣.

٤٢ ـ مُلاّ صدرا، مثنوی، به کوشش مصطفی فیضی، قم، کتابخانه آیة الله مرعشی نجفی، ١٣٧٠هـ ش، ص ١٢١.
٤٣ ـ صدر الدین الشیرازی، الحکمة المتعالیة، دار إحیاء التراث العربی، ١٩٨١، ج١ ص ٥ : ٩.
٤٤ ـ علی أصغر حلبی، تاریخ تمدن إسلام، تهران، أساطیر، ١٣٧٢ هـ . ش، ص ٦٤ : ٦٧.

45- What Went Wrong? P: 155.

٤٦ ـ أمین معلوف، هویتهای مرگبار، ترجمه مرتضی ثاقب فر، تهران، ققنوس، ١٣٨٢هـ. ش، ص ٤٠.

47- The Rage and The Pride, p: 58.

٤٨ ـ صادق هدایت، ترانه های خیام، تهران، کتابهای پرستو، ١٣٥٣هـ . ش، ص٩.
٤٩ ـ بنیامین نتانیاهو، مکان تحت الشمس، ترجمة محمد عودة الدویری، عمان، دار الجلیل، ١٩٩٥، ص ٣٦٧: ٣٦٩.

50- Islam in the ModernWorld. Vol. 1. P. 17, 18.

***

obeikandl.com